توفيق الحكيم

تحت شمس الفكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

٤٤ ــ مصير صرصار (مسرحية)	١٩٦٦
٤٥ ــ الورطة (مسرحية)	١٩٦٦
٤٦ ــ ليلة الزفاف (قصص قصيرة)	١٩٦٦
٤٧ ــ قالبنا المسرحى (دراسة)	١٩٦٧
٤٨ ــ بنك القلق (رواية مسرحية)	١٩٦٧
٤٩ ــ مجلس العدل (مسرحيات قصيرة)	١٩٧٢
٥٠ ــ رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
٥١ ــ حديث مع الكوكب (حوار فلسفى)	١٩٧٤
٥٢ ــ الدنيا رواية هزلية (مسرحية)	١٩٧٤
٥٣ ــ عودة الوعى (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
٥٤ ــ فى طريق عودة الوعى (ذكريات سياسية)	١٩٧٥
٥٥ ــ الحمير (مسرحية)	١٩٧٥
٥٦ ــ ثورة الشباب (مقالات)	١٩٧٥
٥٧ ــ بين الفكر والفن (مقالات)	١٩٧٦
٥٨ ــ أدب الحياة (مقالات)	١٩٧٦
٥٩ ــ مختار تفسير القرطبى (مختار التفسير)	١٩٧٧
٦٠ ــ تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات)	١٩٨٠
٦١ ــ ملامح داخلية (حوار مع المؤلف)	١٩٨٢
٦٢ ــ التعادلية مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفى)	١٩٨٣
٦٣ ــ الأحاديث الأربعة (فكر دينى)	١٩٨٣
٦٤ ــ مصر بين عهدين (ذكريات)	١٩٨٣
٦٥ ــ شجرة الحكم السياسى (١٩١٩ ــ ١٩٧٩)	١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتيننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ ـــ ترجمة أبا إيبان ـــ ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .
عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .
بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .
الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
براكسا أو مشكلة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان ـــ لندن .

الشهيـــد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزيـــة) جمع محمـــــود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعـات الجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة ـــ ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونـدر ونشر دار ماكملان ـــ لندن .

تحت شمس الفكر

عرفت النور ،

ورأيت الجمال ،

ولكنى .. احترقت !..

To: www.al-mostafa.com

فى الـديـن

منطقة الإيمان

حينما كنت وكيلا للنائب العام كنت أرى عجبا فى قاعات المحاكم وجلسات التحقيق ، وكنت أفكر كثيرا فى أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته ، فإذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامى متطلعا إلى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا !..

هذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شىء ، لكن ــ برغم هذا ــ فى نفسه منطقه عذراء ، لم يتطرق إليها فساد .. إنها منطقة العقيدة !.. أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة ؟

كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ، ومع ذلك كان عقله حرا من كل قيد ..

ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى التدليل والمنطق كل مذهب ، إلى أن يقع فى الإلحاد وإنكار الجنة والنار !.. ويؤذن المؤذن بالصلاة ، فإذا القاضى يسرع مخلصا إلى ذلك الدين الذى قال فيه منذ لحظة قولا عظيما !.. أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟ ..

إذا قلنا مع القائلين : إن العقل والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فإن هذا القول يؤدى حتما إلى نتائج غريبة قد تعدّل من نظرتنا إلى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات ، تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل ، بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف

جد الاختلاف عن عالم الأخرى !.. يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجودا في منطقة العين لا يعتبر موجودا في منطقة الأذن .. فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقا ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها ــ وهو عالم الأصوات ــ لا يخطر له على بال أن في الوجود عالما ، يسمى عالم المرئيات ! ..

فالعقل لا يدرى إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه .

والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة وليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التى يستطيع العقل أن يراها من زاويته ، فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب ، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذى يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع فى دائرة القلب !..

فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف ، لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فإنه قد يرتاب فى صحة تلك الصفات المنسوبة إليه ، وقد يراها ــ فى منطقه ـــ صفات آدمية ، أسبغها البشر على خالقهم ، إجلالا له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التى هى فى عرفهم مرادف الإكبار والتقدير .

أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟.. هل تستطيع الكبد فى جسم الإنسان مثلا أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الإنسان الخارجى ، وهى جزء منه داخل فيه ؟.. إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم ، فتحولها إلى إفرازات دون أن تدرى من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب ؟ العقل أيضا يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها ، دون أن يدرى من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب ؟.. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها

الكائنات التى تمر بالحواس ، ومن يحمّل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام ، فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء ، والحقيقة الإحساسية أو الدينية شيء آخر !..

وإن رجال الدين يقعون دائما فى الخطأ ، إذ يبتسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولا يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين .. وما أحراهم فى كلتا الحالين أن يبسَموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين !.. و لم يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم فى كلتا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء ، دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله ، وأن أولئك الملحدين الذين سخّروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك فى جوهره ووجوده ، ــ لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الأسمى ، الذى بيده نفوسهم !..

إن عقولهم كانت ترغى وتزيد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدرى شيئا عن المعركة الحامية القائمة فى تلك الرءوس .. فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث .. على أن اجتهاد المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى المبنى على الأخلاق ، وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة !..

وهنا يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟.. أهو شيء مفيد للبشر فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟.. أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟..

لواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين ، فالدين ــ باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الغرائز ، ويحفظ التوازن بين الخير

والشر ـ أمر متعلق بذات الإنسان .. متصل إذن بعقله وعلمه .. على أن عنصر « الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها ، فإن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » : إنما قوة الدين وحقيقته فى العقيدة والإيمان « بالذات الأزلية » !..

هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الإحاطة والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل !..

ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر ..

إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء ، كلما قام باحث يتكلم فى الدين عن طريق العقل ، فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة ، مهادها المعاهد والجامعات ، ولابد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما أنه لابد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق ، فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاءون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التى هى كل بهرجهم الآدمى الأجوف ، فإن كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب ، الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح ـ رغما عنهم ـ بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة !..

الدفاع عن الإسلام

قرأت ــ لثلاث عشرة سنة خلت[1] ــ قصة « فولتير » التمثيلية : « محمد » فخجلت أن يكون كاتبها معدودا من أصحاب الفكر الحر ، فقد سب فيها النبى العربى سبا قبيحا عجبت له ، وما أدركت له علة !.. لكن عجبى لم يطل ، فقد رأيته يهديها إلى « البابا بنوا الرابع عشر » بهذه العبارات :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع ، من أشد الناس إعجابا بالفضيلة ، إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، وإلى من ــ غير وكيل رب السلام والحقيقة ــ أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبى كاذب وأغلاطه ؟. فلتأذن لى قداستك فى أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة ، وإنى مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » .

« فولتير »

١٧ أغسطس سنة ١٧٤٥

وعلمت فى ذلك الحين أن « روسو » كان يتناول بالنقد أعمال « فولتير » التمثيلية ، فاطلعت على ما قال فى قصة « محمد » علنى أجد ما يرد الحق إلى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضا يدفع عن « محمد » ما ألصق به كذبا ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى هذا النبى

---

(١) من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى عام ١٩٣٨ .

لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن !..

ولقد قرأت بعد ذلك رد « البابا بنوا » على « فولتير » فألفيته ردا رقيقا كيِّسا ، لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين ، وكله حديث فى الأدب ، فعظم عجبى لأمر « فولتير » وسألت نفسى طويلا :

أيستطيع عقل مثقف ، كعقل هذا الكاتب العظيم ، أن يعتقد ما يقول ؟.. دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال هو فى نظره حقا دين كاذب ؟.. ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقا مبادئ بربرية ؟ .. أما إنه التملق والزلفى والنفاق !.. وإن الزمن والتاريخ يضعان أحيانا أقنعه زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر !..

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدىّ : الإيمان بنزاهة الفكر الحر .. ولقد كنت أحيانا ألتمس الأعذار لـ « فولتير » ، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية ، استنادا إلى علم خاطئ بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى « البابا » كان يتهمه اتهاما صارخا ، ويدع مجالا للشك فى دخيلة أمره !..

إنى قرأت لـ « فولتير » كتبا أخرى ، كانت تكشف عن آراء حرة حقا فى مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق ، تكره التعصب الذميم ، فما باله عندما عرض لذكر « محمد » والإسلام كتب شيئا هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن « فولتير » كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين !.. هى الأطماع التى كانت تدفع « فولتير » ــ فيما أرى ــ إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة أحيانا !

منذ ذلك الحين و « فولتير » عندى متهم ، ولن أبرئه أبدا ، ولن

أعده أبدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر وحده !.. وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم .. على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من هذا أن الشرق والإسلام ، وقفا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتبا من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال « فولتير » !.. ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفا وضع كتابا يبرز فيه شخصية النبى العظيمة واضحة جلية !.. لقد كان الشرق فى ليل هادئ بهيم ، لم تثر فيه حركة « فولتير » يومئذ ساكنا ، اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدهم ، وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيدا للحق وللشرق ، فإن المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضا مسألة جنس وقومية !..

وإذ تقول أوربا : « الإسلام » فإنما تعنى غالب الأحيان « الشرق » .. والدفاع عن الإسلام لم يكن فى كل الأحيان دفاعا عن عقيدة وديانة ، إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : « الشرق » .. إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ، وإن الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن إلا حرب الشرق على الغرب !..

هذا المد الجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائما على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ، ومن دوران الفلك طبقا لناموس أعلى لا قبل لهم به ، فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ، وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ،

ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة إلى صوت من الشرق ارتفع فى العصر الحديث محتجا مدافعا ، هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده ، فى رده على « هانوتو » ، فلقد نشر « جابريل هانوتو » الكاتب والوزير الفرنسى يوما مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية !.. اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الإفريقية بسرعة لا تجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين « يونان الشرق » ، ثم تراءوا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب فى الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى إليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى إفريقية ، حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقابا متعاقبة » !..

ثم قال فى موضع آخر :

« وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى ، فرأى فى الإسلام العدو الألد والخصم الأشد » ..

قال المسيو كيمون فى كتابه « باثولوجيا الإسلام » :

« إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مروع وشلل عام . وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح .

وما قبر « محمد » فى « مكة » إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع « الهستيريا » العام والذهول العقلى ، وتكرار لفظة « الله » إلى ما لا نهاية ، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ، ككراهية لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ،

والجنون الروحانى ، والليمانيا ، والماليخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات » الخ .

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو « كيمون » : « وأن الواجب إبادة خمسهم » . كما يقول أيضا : « الحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » فى متحف « اللوفر » .. وهذا أيضا قوله : « .. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟.. ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليونا من المسلمين[١] ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » ، للدفاع عن أنفسهم ، والذود عن بيضة دينهم » الخ .. الخ ..!..

ما كاد يظهر هذا الكلام فى صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ « الإمام الشيخ محمد عبده » لساعته بجردا قلمه ، وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعا عن الإسلام ، وإظهارا لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين .وقد رد على «هانوتو» فيما أوردنا صائحا:

« ما هذا (التمدين الآرى) الذى كانت عليه أوربا عندما أنقص أطرافها المسلمون .. ؟ هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة اللّه وبين الاعتراف بالعقل ؟ نعم هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام !..

« ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ؟.. وما هى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟.. زحف عليهم بما أفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين .. زحف عليهم بعلوم أهل فارس ، والمصريين ، والرومانيين ،

---

(١) عدد المسلمين الحقيقى فى العالم يبلغ نحو ٥٠٠ مليون .

واليونانيين !.. نظف جميع ذلك ، ونقاه من الأدران ، والأوساخ التى تراكمت عليه ، بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعا ، بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين ، الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون ؟..

إننى أكيل لمسيو « هانوتو » إجمالا بإجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين ، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة ، كانت تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها عدة قرون ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا !..

واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم ، بعدما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم ، فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة » !..

ثم رد « الإمام » فى موضع آخر :

« يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره ، والإسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو « كيمون » الذى استشهد « هانوتو » بكلامه ريح العلم ــ لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه !..

« من أين أتى المسلمون ، وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه ؟ .. وفى عوائدهم بالتمويه ؟.. وممن تعلموا الافتراس ؟.. وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟.. أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط !..

« اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم ، وبادءوا بما كان لهم وما عليهم !..

« حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل ، وحصدت العقائد .. وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه « كيمون » !..

« أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، ـ لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم اللّه إليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم ، وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه « هانوتو » و « كيمون » من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع !..

يرى « كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه « هانوتو » لولا ما يقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهر ضعفهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما !..

أما فليعلم كل من يخادع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز مثل « إسحق طلير» .. وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة : إنه يمتد فى إفريقيا ، ومعه تسير الفضائل حيث سار . فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره !.. » .

* * *

نعم لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق ، بل لقد آن للغرب أن يدرك أن « محمدا » والإسلام هما من منابع الفكر الحر ، وطفرة من طفرات البشرية المتحررة !.. والدليل على ذلك شخصية النبى ذاتها ، وغرضه فى الدعوة إلى دين ، جوهره إقناع النفس بالحقيقة العليا ، فـ « محمد » هو أول نبى مجّد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو

دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات ، فأثموا فى الفكر البشرى ، قبل أن يأثموا فى حق الدين !..

فالمعجزة ـ أى الإتيان بعمل خارق للمعتاد ـ لا تدل على شىء ولا تثبت نبوة ولا تدحضها ، فإن من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحيانا تلك القوى الخارقة فى أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم ، دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء .. إن « النبى » ليس فى حاجة إلى معجزة كى يكون نبيا .. إنما النبى من حُمِّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها .. ومن فضل « محمد » أنه لم يشأ أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلّغهم رسالته .. واعتمد فى إثباتها على الملكات البشرية المجردة المتحررة !..

فلقد جاء فى كتب السيرة : أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى « غزوة تبوك » ، فأمطرتهم السماء فقال بعضهم : إنها معجزة ، فصاح « محمد » من فوره : « إنما هى سحابة مارة !.. وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه « إبراهيم » ، فقال الناس : « إن هذا الكسوف معجزة » ، فصاح « محمد » : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » !.. هذا كلام « محمد » الذى قال الغرب إنه نبى كاذب !!.. فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟؟..

إن « محمدا » قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى ألا يكون فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقا لنظام دقيق ، وإذا قيل نظام قيل قانون ، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد أحد ، تبدو سمته فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى العِظم ، كما تبدو فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها فى كل

شيء ، يد واحدة لاتتغير ، وقانون واحد لا يتغير !..

إن « محمدا » قد تأمل الطبيعة كثيرا أيام عزلته الطويلة في « غار حراء » ، وفكر مليا في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره ، فامتلأ قلبه باللّه الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه دينا كاملا ، صادقا في نظر القلب والعقل معا !..

ولئن كان على الأرض نبي حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد الذي قال :

« فضل العلم خير من فضل العبادة » .. « اطلب العلم ولو في الصين » .. وكثيرا من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر إقناع العلم ، ومصدر إقناع « محمد » واحد : الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل !..

في كتاب حديث للعالم « أنشتين » فصل ذكر فيه رأيه في الدين فقال : « إنه يعتنق ما يسميه : الديانة الكونية » ، تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع للتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفي من عقل جبار ، لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه ، ــ لما كونت غير شعاع ضئيل ، أقرب القول فيه أنه لا شيء ! .. » .

لا ريب عندي أن إحساس « أنشتين » نحو الكون واللّه ، هو عين إحساس « محمد » يوم كان يتحنث في « غار حراء » ، قبل نزول الوحي !.. إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال اللّه ، ولا يمكن لنبي أن يكون نبيا إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ، ويتحرق شوقا إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحي إليه بنشر هذا النور على الإنسانية !..

إني كلما تأملت شخصية « محمد » مجردة ، ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وأن الدين الحق

لا يتعارض والعلم والحق !.. بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور اللّه ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ، ووحدة قوانينه ، ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق !.. ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك !.. إنما الفارق بين العلم والدين هو فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من اللّه ، ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟..

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، إنما المصدر واحد دائما ، والغاية واحدة ، فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها ، لتهتدى إلى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : اللّه !

نجم « أحمد » ..

وقف اليهودى على أحد آطام « يثرب » ناظرا إلى السماء ، يعلن إلى بنى قومه ميلاد النبى فى صيحة مدوية :

– « طلع الليلة نجم أحمد » !..

عجبا من العجب !.. أحقا لم ير ذلك اليهودى نجم « أحمد » قبل تلك الليلة ؟.. يخيل إلىّ أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان .. إن نجم « أحمد » طالع فى كل لحظة يشع نورا من بداية الكون ، لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية !.. نجم « أحمد » هو الحق ، والحق لا يبدأ ولا ينتهى .. ولا يظهر ولا يختفى .. إنه موجود !..

إذن ما الإسلام ؟.. وكيف ظهر الإسلام بظهور « محمد » ، والمسيحية بظهور « المسيح » ، واليهودية بظهور « موسى » ؟.. هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق .. بين المعنى والأسلوب .. ما الإسلام إلا أسلوب من أساليب الحق ، ورداء من أرديته .. كذلك المسيحية ، وكذلك اليهودية وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى الجوهر وتختلف فى المظهر .. وهنا نستطيع أن نفاضل بين الأساليب ، وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب .. فالمفاضلة لا تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ، إنما المفاضلة فى الأثواب !..

وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهى

كلها من صنع الخالق المعصوم ، الذى لا ينبغى أن يخطىء ، ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه ؟.. أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذى يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟..

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب النظر فى قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذى ركب عليه النبى أو الرسول أثر فى أسلوب رسالته ؟.. هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذى يدعو إليه ؟.. وهل لظروف العيش التى نشأ عليها النبى دخل فى اتخاذ « القالب » الذى أفرغ فيه موضوع النبوة ؟..

إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة فى « أسلوب » الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء . والنبى إذن مسئول عن الطريق الذى اتبعه بالإبانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التى صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ، وعلى قدر « الشخصية » ذات الوجود الفعلى تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى !..

إن صح هذا الكلام فإنى أستطيع القول بأن النبى أو الرسول لا يصل إلى الحق متجردا عن شخصيته ، بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته ، كذلك فعل « النبى العربى » ، وكذلك فعل « المسيح » و « موسى » ، وكذلك كل « نبى » لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله .. وهى ملكات تختلف باختلاف الأشخاص !.. وهنا يبدو سر تباين الأساليب التى جرت عليها الأديان فى عرض جوهر الحق على الناس !..

ولعل « محمدا » صلى الله عليه وسلم هو أكثر الأنبياء حرصا على تنبيه الناس فى كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التى يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل

بالله هذا الاتصال الخاص ــ الذى قصر على الرسل ــ إلا إذ يشاء اللّه ، وأنه فى كثير من حياته الخاصة أو العامة ــ حيث لا وحى يهديه السبيل ــ يتصرف كما يتصرف البشر .. وهكذا فعل فى معارك « بدر » و « أحد » و « الخندق » ، إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأى من رجاله !.. وهكذا فعل إذ لم يُخف ميله إلى الطِّيب والنساء ، بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التى ركبها الخالق فى البشر .. والنبى الحق أجل من أن يكتم مزاجا أو طبعا ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية !..

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان ، فهو دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة ، كل شىء فيه صادق خالص صاف ، ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر ، من حيث تركيبهم المادى والمعنوى ، ذلك أن أسلوب « محمد » صلى اللّه عليه وسلم فى إدراك « الحق » كان أسلوبا مستقيما ، فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذى يصدر عنه « الناموس الأكبر » ، وأن روح الوجود هو « النظام » ، إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخليقة !.. بل إن « الفوضى » إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاما ، لأنه لا وجود بلا نظام ، بل إن كلمة « الفوضى » لا محل لها إلا فى أدمغة البشر ، يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة !..

أما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام ، الذى فرض على الإنسان والحيوان والجماد !.. هل من سبيل إلى مخالفته ؟.. إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة للّه ، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند اللّه ، لأن اللّه لا يناقض نفسه !..

كل هذا فهمه « محمد » صلى اللّه عليه وسلم ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الإسلام فى الإفصاح عن « الحق » واضحا جليا ، لا يأمر بالرهبنة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل اللّه ، لأن اللّه لا يأمر بتحطيم ما بناه !..

إنما يريد اللّه أن تعيش الأحياء طبقا لقوانين الحياة التى وضعها لها ، وأن تجاهد فى سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية : والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية !..

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مراء هو دين الصحة فى كل شىء ، فهو ذو صوت جهير فى الدعوة إلى صحة الجسم ، وصحة العقل ، وصحة العقيدة !..

ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيدا ، فإن مستقبله ولا ريب يسير بازدهار يعم الأرض ، لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وتنقيه من ثرثرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التى لا تصدم تقدما ، ولا تعارض التطور الطبيعى للأذهان والأشياء !..

وقتئذ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول ، فإن الدين « المثالى » هو الدين البسيط ، وهل أبسط من الإسلام شريعة ، وهى لا تعرف « رجال دين » ؟.. ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ؟.. ومن « الدين » مهنة تدر الرزق وتعطى متاع « الدنيا » ؟.. إن أولئك الذين يجعلون « الدين » سلما « للدنيا » — لا « الدنيا » سلما « للدين » — قد طردهم الإسلام بعيدا عن حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسما باسطا ذراعيه لكل الناس ، لا احتراف فيه ولا احتكار !..

نعم ، إن حاجة البشر كافة قد اصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوى الصافى من المبادئ البسيطة المستقيمة ، التى لا خداع فيها ولا تمويه ، ولا تناقض ولا تشويه ، ولا إخلال ولا تدخل فى قوانين الطبيعة الأساسية التى وضعها المبدع الأعظم !.. إذا تم ذلك للإسلام فى هذا العصر ، فلسوف يأتى يوم يقف فيه أهل الأرض أجمعون ـ من كل جنس ولون ، على آطام بلادهم ـ يصيحون فى كل حول صيحة ذلك اليهودى :

ـ لقد طلع نجم « أحمد » ..

سر العظمة

ينبغى لمن أراد أن يعلم سر عظمة « محمد » صلى اللّه عليه وسلم أن يتخيل رجلا وحيدا فقيرا تمكنت من قلبه عقيدة ، فنظر حوله فإذا الناس كلهم فى جانب وإذا هو بمفرده فى جانب .. هو وحده الذى يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض : لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود .. هذا موقف النبى صلى اللّه عليه وسلم ، وهذا موقف العالم .

رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، أمام عالم تدعمه قوة العدد والعدة ، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها فى قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذورا ليس من السهل على أول قادم اقتلاعها .. فالنبى هو ذلك القادم الذى يريد أن يقتلع تلك الجذور ، ويضع مكانها غرسا جديدا ، والعالم القديم هو ذلك السادن القوى لتلك الشجرة العتيدة ، يذود عنها ، وتأبى كرامته أن يفرط فى ورقة منها !.

إذن هنالك « مبارزة » بين فرد أعزل ، وبين عصر بأسره يزمجر غضبا : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه .. هذه المبارزة الهائلة العجيبة ، من يستطيع أن يقدم عليها غير نبى ؟!.. على أن المعجزة بعد ذلك ليست فى مجرد التحدى ، ورمى « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى العجاج : « أن اترك أيها العالم

دينك القديم واتبعنى !.. » ذلك الصوت الذى لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة ..

وليست المعجزة كذلك فى مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، وإنما المعجزة حقيقة هى أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافرا منتصرا ، فإذا هذا العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة ، وقد انقلبت سخريته خشوعا طويلا ، وقهقهته صلاة عميقة !..

كيف ربح هذا الرجل الموقعة ؟.. ما وسائله ؟.. هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ .. أو أن اللّه هو الذى نصره ، دون أن يكون لشخصية النبى دخل فى الانتصار ؟.. عقيدتى دائما أن شخصية النبى لها أثر كبير !..

وهنا معنى الاصطفاء ، فاللّه يختار من بين البشر عظيما له كاهل قوى يحتمل عبء الرسالة .. ويوحى إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها ، فالنبى ليس آلة تحركها يد اللّه فى كل خطوة ، إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين ، والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التى يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية ، فاللّه لا يريد نشر الأديان للبشر إلا بالوسائل البشرية .. إنه لا يتدخل بقدرته العلوية ، فيفرض الدين فرضا على الناس كما تفرض عليهم الزوابع والأمطار ، ولكنه يحب دائما أن يخلى بين « الدين » وبين « الناس » ، حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه فى نفوسهم بجمال نوره وحده ، ولكن أعين الناس لا ترى كل الأحيان ، فهم يعيشون فى أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء فى أغوار المحيطات !..

هنا تبدأ متاعب النبى ، وهنا تظهر المعجزة الحقيقية ، وهى إبراء الأعمى ، لا أعمى واحدا ، ولكن ملايين العميان ، فهو الذى يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين الجديد الذى أتى به ..

وهنا ينبغي التساؤل : كيف استطاع النبي أن يُرى الناس ما يرى ، وأن يقنعهم بما جاء به ؟..

الجواب بسيط :

حياة النبي وخُلقه !.. إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده ، وإنما يؤثر فيهم الفعل والمثل .. إن الناس يوم أيقنوا أن « محمدا » لا يسعى إلى غنى ولا إلى ملك ، وأنه يريد أن يبقى فقيرا يشبع يوما ويجوع أياما ، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ، وأن كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها : — إنما هو سبيل « العقيدة » التي يقول لهم عنها ، — منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته ، وعرضوا عليه ثروتهم ، ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكا ، على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئا واحدا : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ، — عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعا أن الأمر جد لا هزل ، وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ، وأنه الآدمي الذي لا يغريه في الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل « فكرة » لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحي في سبيله بخير ما في الحياة !..

أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون مليا ، وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقا يعمل لمغنم ، إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه الدار !.. عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه .. فوسيلة « النبي » الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخصم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية ، وهنا كانت قوته .. فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من مطامع البشر ..

ولكن هذا لا يكفي ، فالناس قد تقتنع بأمانة النبي وقد تستمع إلى

ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يـوم وليلـة كـل ماضيهـا لتؤمـن بهذا الكلام الجديد .. إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذى الماء الكثيف ، يدفـع إلى سطحه كـل جسـم غريـب ، ولا ينفـذ إلى أعماقـه إلا شيء ذو وزن ، بعد زمن وجهد .. وإن الناس لشـديدة الحـرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها .. فما أدراهم أن هذا الكلام الجميـل — الذى جاء به هذا النبـى ، ذو الحديـث الطلـى — ليس إلا بضاعـة زائفـة ووهما خلابـا ، لعـب بلـب هـذا الرجـل الأمـين المسـكين فريسـة مـرض ومس ؟.. مـا هـو الأجـدر بهم عندئـذ ؟.. يطلبـون الطـب حتـى يـبرأ ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعـون حلمـه ومسـه ؟.. لقـد وضعـت المسـألة إذن وضعا آخر ، واتخذت الحرب ميدانا جديدا .. ماذا يصنع النبـى ؟.. لابـد له من أن يبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان ، حتى يصل إليهـا نـور الدين .. هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فإن العاقبة فى الحرب لمن صبر وصابر وثابر !.. وإن أمامه لخصما جديدا ، وهو الشك الذى يقـوم الآن فى رؤوس الناس ، كـان حقيقـة رجـلا عظيمـا فليقتـل هـذا الشـك بمفرده ، وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمه طامية !..

ولقد جاهد الرسول فعلا فى كل لحظـة مـن لحظـات حياتـه ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التى فى قلبـه حـارة قويـة ، إلى قلـوب الناس جميعا ، وهنا كان النصر الأخير وتمت المعجزة ، وتمكن هذا الرجـل لواحد أن يضع العالم فى قبضته ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبديـن بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد !..

المرأة فى شباب النبى

لم يرو لنا التاريخ أن « النبى العربى » عرف امرأة ، أو تحرك قلبه لامرأة ، قبل « خديجة » ، فلقد كانت حياته ، حتى الخامسة والعشرين ، حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم فى الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق ، فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره .. كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من « قريش » كان معه بأعلى « مكة » يرعيان غنم أهلهما : « أبصر لى غنمى هذه الليلة ، حتى أسمر بمكة كما يسمر الفتيان !.. » ، ثم خرج ، فلما جاء أدنى دار من دور « مكة » سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام مكانه و لم يوقظه إلا مس الشمس ، ورجع !.. فسأله صاحبه : « ما فعلت ؟.. » فأخبره بما كان !.. وكان هذا شأنه فى كل ليلة من مثل هذه الليالى !..

كانت العفة المطلقة إذن هى صفته الغالبة وقتئذ ، وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع مما ميزه عن بقية الشبان ، ومما جعل قومه يسمونه « الأمين » ..

ما الذى كان يشغل رأس الشاب « محمد » فى تلك السن ، ما دام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟.. أتراه كان يحس فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟.. نعم إن هذا الفتى قد شب فى عصر شاعت فى جوه كهرباء غريبة ، مشحونة بالأساطير والتنبؤات ، عن قرب ظهور نبى من العرب

اسمه « محمد » وكان مصدر هذا النبأ اليهود ــ أهل الكتاب ــ والكهان ، حتى لقد سارع من بلغه ذلك من العرب ، فسمي ولده « محمدا » طمعا في النبوة !.. فهذا الجو الذى نشأ فيه الصبى « محمد » والاسم الذى حمله ، والإشاعات التى أحاطت به عن ذلك النبى الموعود ، ــ كل هذا كان كافيا من غير شك فى أن يبعثه على التفكير فى هذا الأمر منذ الصغر ، ولعله طمع ــ هو أيضا ــ فى أن يكون هو النبى الجديد !.. ولعل هذه الفكرة تملكت كيانه وطغت على كل شبابه ، فلم تتسع حياته فى ذلك الوقت لشيء آخر !..

لقد كان هذا غالبا شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام ، وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم ، وحلت فيها محل اللهو والمرح !.. إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة ، إلا الشاب الموعود برسالة عظمى ، فهو يعيش دائما مع شبح المجد المنتظر !..

لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى « محمد » ، حتى الوقت الذى لقى فيه أول امرأة أحبها : « خديجة » !

وأنا لو تأملنا الأمر مليا لتبين لنا أنه لم يكن البادئ بالحب !.. كل شيء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا ، وكأنه لا يمشى على هذه الأرض ، إلى أن لحظته « خديجة » ذات يوم ، ولمست كتفه فأفاق قليلا ، ورفع عينيه إليها .. نعم !.. إنها هى التى كانت ترقبه منذ زمن .. وإن لشعورها نحوه جذورا ممتدة فى أغوار قلبها ، امتداد عرق الذهب فى المنجم العميق !

ما مبدأ هذا الشعور ؟.. لعله ذلك اليوم الذى احتفلت فيه نساء قريش بعيد لهن ، وكانت « خديجة » بينهن ، عند وثن من الأوثان ، فبرز لهن أحد اليهود مناديا بأعلى صوته :

« يا نساء تيماء !.. إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له « محمد » فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل !.. » .

فقذفته النساء بالحجارة ، وقبحنه ، وأغلظن له ، إلا « خديجة » فإنها أطرقت ، وكأن شيئا وقع في نفسها من كلامه ، ثم حدث بعد ذلك أن « خديجة » ــ وقد كانت ذات مال كثير ، وتجارة تبعث بها إلى الشام ، وتستأجر من أجلها الرجال ــ أرسلت الشاب « محمد » في تجارتها وضاعفت له الأجر ، فعاد رابحا ضعف ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لأمانته واجتهاده .. وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » ــ وقد رافق « محمدا » في رحلته ــ ما رآه من الشاب المستقيم الأمين !..

ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ، وأنهما تذاكرا مليا في أمر النبي الموعود المسمى « محمد » !.. كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى في روع « خديجة » أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود !.. فإذا أضفنا إلى كل هذا أن « محمدا » كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر .. وأن « خديجة » كانت امرأة في الأربعين أدركنا أن مثلها كان لابد له أن يحب مثله !.. وهل يمكن أن نسمي هذا الشعور باسم آخر غير « الحب » .. ذلك الذي يدفع امرأة ذات شرف وثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم ؟.. هي التي قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، طلبوها وبذلوا الأموال ، فلم تلتفت إليهم وأرسلت تابعتها « نفيسة » في خفاء إلى الشاب « محمد » تعرض عليه يدها !..

منبع الحب إذن كان قلب « خديجة » !.. ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب « محمد » ، وأن يملأه كل تلك الأعوام التي عاشتها « خديجة » ، بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت « خديجة » ، ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما ، لم تستطع قط امرأة

أن تزاحمها فيه !.. هذا هو حب « محمـد » الأول !.. وتلـك ناحيـة مـن نواحى الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيرا لـ « خديجة » بما هـى أهلـه من التكريم والتمجيد : إنها أول امرأة علمت محمدا « الحب » !..

جوهر الدين

كان « عمر بن الخطاب » شديدا فى مراعاة أحكام اللّه ، حريصا على إقرار الأمن والأمانة بين الناس ، فبينما هو يسير يوما فى أحد الأسواق إذ به يرى رجلا يلتقط من الأرض لوزة ، ويرفعها فى يده ، ويجرى بها فى الطريق صائحا :

ــ من ضاعت له لوزة ؟!..

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلا :

ــ كُلها يا صاحب الورع الكاذب!..

* * *

فى الناس أيضا من يلتقط لفظة فى كلام كاتب ، فيرفعها منعزلة عن نواياه ، مستقلة عن مراميه ، ليندب ويولول صائحا :

ــ « ضاع الدين !.. ضاع الدين !.. » .

مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظا ، ولا يدرك بأفقه المحدود أن الدين لا يخشى عليه من لفظة ، كما أن الأمانة لا يخشى عليها من لوزة !.. وأن الكتاب والشعراء فى كل العصور ينتفعون بكل ما فى الكتب القديمة من صور ، دون أن يرتاب فى عقائدهم القارئ الحصيف !..

ومن ذا الذى يستطيع أن يرمى بالوثنية شاعرا ، يناجى آلهة الشعر ،

أو يرى فى هتافه ــ بإله الحرب ، أو إله البحر ـــ شركا باللّه الواحد الأحد الذى لا شريك له .. وإنما هى صور من الآداب القديمة يستعيرها الشعراء والكتاب فى أساليبهم ، دون أن يخطر فى بالهم أن من الناس من يضيق عقله فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة الدينية !

* * *

ولكنى مع ذلك أحيى كل من يعنيه جوهر الدين ، وأحث الناس على أن يفخروا بالدين ، فإنى دائما أومن أن الدين هو الذى رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعا !

فالذكاء ليس بالمزية التى اختص بها الإنسان وحده ، والنظام الإدارى المحكم أو الإقتصادى الكامل ليس وقفا على المجتمع البشرى ، فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاما فى الإدارة ، وإن مجتمع النمل لأتم منا إحكاما فى الاقتصاد !.. ولكن الذى يميزنا ــ نحن معاشر البشر ــ هو « الإيمان » !.. ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك الإيمان الدينى ، لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان !..

إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك ، وإذا خلعت رداءك الدينى فقد خلعت رداءك البشرى ، وانقلبت دابة تسعى إلى رزقها فى الأرض ، ولا تقوى على التطلع إلى السماء !.. الدين هو الذى يرفع بصرك إلى أعلى أيها الإنسان !.. إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك !.. وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان !.. وإذا ارتفعت إلى حيث تدرك وجود « اللّه » فأنت سيد الكائنات !..

* * *

كل شيء قد يعرفه الحيوان إلا « الدين » .. لو عرفت جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت في الحال بشرا ساجدين .. ما من شيء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجد من أجل فكرة عليا !.. ونتحمس من أجل معنى مقدس .. وتعرف قلوبنا ما هو « الإيمان » !!..

في الأدب والفن والثقافة

الخلق

لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغير !.. ولكن كيف تغيرت ؟ هذا هو موضوع الكلام . إن شئون الفكر فى « مصر » حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده ! .. كنا فى شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات .. لا نرى أنفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين !.. لانحس بوجودنا .. ولكن نحس بوجودهم هم !.. لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد !..

وجاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد ، وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله ، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف ، وبدت الذاتية المصرية واضحة ، لا فى روح الكتابة وحدها ، بل فى الأسلوب واللغة أيضا .. لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا ..

وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب ، وإستقلال طريقة التعبير ، وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة .. كل هذا أصبح اليوم جليا معروفا ، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ولقد مضى الكلام فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصرى : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته .. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل ، وما فهمنا

بعد جيدا مميزات النفس والروح !..

ما هى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟.. وما روح مصر ؟.. ما مصر ؟.. إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ، وإن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر حتى إذا ما تم تمييز الروحين ــ إحداهما من الأخرى ــ كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « هانحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم فسيروا » !..

لابد لنا إذن أن نعرف من المصرى ؟ ومن العربى ؟.. هذا السؤال ألقيته على نفسى منذ سنوات معدودة ، إذ كنت أطيل النظر فى الفنين المصرى والإغريقى .. وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد فى فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد ، وعند الإغريق عارية الأجساد ؟.. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، كل شىء فى مصر مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الإغريق !.. نعم كل شىء فى مصر خفى ، كالروح ، وكل شىء عند الإغريق جلى ، كالمنطق !.. فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل !.. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام .. إن المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة . إنه يستنطق الحجر كلاما وأفكارا وعقائد !.. على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى !.. يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال !.. يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شىء بكل شىء !.. يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء !..

هذا كله يحسه الفنان المصرى ، لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ

إلى ما وراء الأشكال الظاهرة ، لتحيط بقوانينها المستترة !.. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن !.. إنه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها ، وما روح التشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه !.. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهي ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون !..

كل شيء في مصر إلهي ، لأن « مصر » التي منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد في سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة .. حظها في هذا حظ « الهند » : أمة كثيرة الخير دانية القطوف ، لا حاجة بها إلى الكفاح ، ولا عمل لها إلا استمرار ترف الحكمة العليا .. انقطعت هي أيضا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح ، لأنهما قد شبعتا من المادة ، والإغريق على النقيض ، أمة لم تشبع من المادة .. أمة نشأت ، في العسر والفاقة .. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا .. كان لزاما عليها الكفاح في سبيل العيش ، وكان حتما عليها الجرى وراء المادة .. حرب تلو حرب ، وفتح بعد الفتح ، وضرب في مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للإغريق ذلك الضمير المطمئن ، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة !.. إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجة بالدم ؛ لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق ، واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا في مصر قبل التاريخ المعروف . ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق !.. ولقد قال

« سولون » : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد » آترى كانت الحضارة المصرية استمرارا لتلك المدنية المندثرة ؟.. لم يقم دليل على كل فرض . « مصر » أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل ، وخيرها الكثير ، فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصرى ، ولا شىء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها ، فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الإغريقى إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الإنسانية » من نعوت هذا الفن !.. نعم الحياة هى كل شىء عند الإغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى ، فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح !. فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة !.. فلسفة الحركة لا فلسفة السكون !.

عند « مصر » و « الهند » السكون ، وعند « الإغريق » الحركة . قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليرى » ، وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة اليونانية ، فإذا هو يشير فى قصيدة إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض « زينون » الألياتى فى إنكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة ، أى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة ، ولم يفهم فى رأيى روح « مصر » و « الهند » !.. ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فإن دون هذا الإشراف والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى !.. هذه هى الصعوبة فى فهم مصر ، و « الهند » ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرا مغلقا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف

الناس إلى دراسة اليونان وحدها ، فهى واضحة المعنى يسيرة المنال لأنها لزمت شاطئ الحياة !..

حظ « الإغريق » فى كل هذا حظ العرب أيضا ، أمة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها .. صحراء قفراء .. قليل من الماء يثير الحرب والدماء .. جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة .. أمة لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا فى السِّير والأخبار .. كان حتما عليها ألا تحس المثل لأعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، وألوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى !.. أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع !.. كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ، لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف !..

عند الإغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، اللذة .. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة ، فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضا على ظهور الجياد .. كل شىء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار .. وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟.. دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا « ميتولوجيا » ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا إحساس بالبناء !.. لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد .. الأسلوب العربى فى العمارة من أوهى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن ، وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف .. فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية .. إن العمارة العربية ــ إلا فى مصر ــ ما هى فى رأيى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ، ولا جبهة عريضة ، ولا وقفة ولا بساطة

عظيمة ، ولا روعة عميقة ، وإنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر ، ولا فكر خلفه !..

أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف . كل شيء عند العرب زخرف .. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس : « فسيفساء » اللفظ والمعنى ، و « أرابسك » العبارات والجمل !.. كل مقامة للحريرى ، كأنها باب الجامع المؤيد : تقطيع هندسى بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذا بالبهرج الخلاب !.. كذلك الغناء العربى « أرابسك » صوتى ، فلا مجموعة أصوات منسقة البناء كما فى « الديترامب » أو « الأوركسترا » الإغريقية أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى ، ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرا بسيطا مستقيما !.. وإنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم ، كأنها « ستالاكتيتات » غرناطية ، لا يكاد يسمعه « القاضى الفاضل » حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه . كان هذا فى العهد الأول للموسيقى ، إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية ، تخرج من القلب تعبيرا عما فى القلب ، أو رمزا لفكرة من الأفكار !.. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرموز ، ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز إلا الصلة المباشرة بالحس ، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل . ولقد حاول « الفارابى » — فيما أذكر — التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية ، وكان لابد من الإخفاق لأسباب قد أذكرها بعد !..

كذلك التصوير العربى على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف

للكتب والمخطوطات ، ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور الفارسى .. قد يكون للدين دخل فى تأخر النحت والتصوير عند العرب . غير أنى أعتقد فى براءة الدين ، فإن العرب كانوا دائما ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ، لقد حرم الدين الشراب فأحلوا هم الشراب فى قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر فى أدب أمة بأحسن مما وصفت فى الأدب العربى !.. لا شىء فى الأرض ولا فى السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة ..

أما النحت أو التصوير الكبير فليس فى طبيعتهم ، لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها إحساسا عميقا بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء ، وللجزء فى الكل ، وليس هذا عند العرب ، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب ، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة .. قليل من الكتب العربية فى الأدب يقوم على موضوع واحد متصل ، إنما أكثر الكتب « كشاكيل » فى شتى الموضوعات ، تأخذ من كل شىء بطرف سريع : من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا « تراجيديا » واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ، لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلئ طربا وإعجابا ، ـــ لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى وإشباع لذات الحس ، حتى الحكمة وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : إشباع لذة المنطق ، والمنطق جمال دنيوى .. ولا أستغرب غضب « نيتشه » على « إيروبيد » لإسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى !..

من المستحيل إذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه « مصر » و « الهند » من كلمتى الروح والفكر !.. إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. إن موضع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضع الـ « سكيرتزو » من سانفونية « بيتهوفن » نغم سريع مفرح لذيذ !!..

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء !.. والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف ..

مقابلة عجيبة ، مصر والعرب وجها الدرهم ، وعنصرا الوجود .. أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح !.. إنى أومن بما أقول ، وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف .. تلك ينابيع فكر كامل ، ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير .. إن أكثر المدنيات يميل : إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة !..

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة ، وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة « الإغريق » !.. نعم أعود فأرد إلى أمة « الإغريق » اعتبارها ، وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرا بعض الشىء بكلام « تين » ، و « تين » عقل خلاب ، لكنه عقل ، والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيات .. ما هدانى إلى الحق إلا القلب .. إلا طول تأملى فى جبهة « الباريتينون » .. من دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » ، فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى إلىّ بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشىء آخر غير مجرد

المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتنى ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف ، وذكرت من فورى أن أصل الإغريق جنسان مختلفان : « اليونانيون » القادمون من آسيا ، المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا » ، و « الدريون » الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال ، وإله اليونانيين هو « ديونيزوس » وإله الدوريين هو « أبولون » .. وها هنا تفسير الإغريق . فى هذا الصراع بين « ديونيزوس » رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة .. وبين « أبولون » رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة ، وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى « ديونيزوس » إله آسيوى فيما يخيل إلىّ جلب من « الهند » بلا مراء ، فغدا فى اليونان ينبوع الموسيقى ، لهذا السبب قدرت إخفاق « الفارابى » فإن الموسيقى العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق العقلى والظاهر المحسوس !.. إن العرب من عباد « أبولون » وهم لا يشعرون ، إن العرب لا يمكن أن يفهموا « ديونيزوس » ، تلك النشوة الدينية الجارفة التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى ، كى تصله مباشرة بالطبيعة !.. إن أغانى عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ، ومزامير الـ « ساتير » ، ـــ لشىء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الإنسان فى لحظة أنه انقلب مخلوقا له جسم جواد ورأس رجل ، أو رأس رجل أو رجل ماعز .. هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء .. هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى فى مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الإلهية البائدة التى كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان .. مخلوقات لا هى من الإناث ولا هى من الذكور ، لا هى من الحيوان ولا هى من الإنسان ، لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك « الساتير » فى « الميثولوجيا » الإغريقية رمز للإنسان الأول ، الإنسان الدانى من

الحيوان ، القريب من الآلهة ، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الإغريق والهنود ، كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الإلهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى والإلهام الذاتى يرى به كتلة الزمن ، من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة !..

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للإنسان الأول ، وفقدناها اليوم .. نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر .. وها نحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذه .. أين ذهب « ديونيزوس » ؟.. وهل يبعث من جديد ؟.. وإذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟!..

رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف « غالياس »[1] أصحاب الكهف !!.. وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر : هذا الغالياس العصرى هو : « تاجور » !.. إنه يتكلم كثيرا عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة ، وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التى تخترق الكون ، وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد ، هذا كلام جميل ، لكن هل تراه يشعر بحقيقته .. يخيل إلىّ أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الإغريق . بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الإغريق ! انقضت بطغيان منطق « سقراط » على روح « هوميروس » ، انقضت بطرد « ديونيزوس » من « تراجيديات إبرويبد » .. غضبة « نيتشة » المعروفة .. انقضت بغلبة الإحساس الفعلى على الإحساس الروحى ..

---

(١) أحد أبطال قصتى « أهل الكهف » .

انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » ..

وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد ، ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق وبقيت فى الظلام كنوز « ديونيزوس » الخفية !..

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوما ؟..

« دمنهور » فى مايو ١٩٣٣م ــ من رسالة إلى « طه حسين » !..

النقـــد

.. نحن متفقـان ولا خـلاف بيننـا فـى الغايـة ، وهـذا هـو مطلبنـا !.. هنالك تفاصيل أفترق فيها عنك ولن أعود إليها ، فأنا أفزع من النظـر إلى الـوراء : خشـية أن أتحـول إلى تمثـال مـن الملـح ، أو حتـى إلى تمثـال مـن الذهب !.. نفسى تصدف أحيانا عن الفكرة الجامدة مهما تكن خـالدة ، ويحلو لى أحيانا أن أنثر الأفكار عابثا من نافذة قطار !..

إن رسائلنا في حقيقتها لا تعنى أكثر من إثارة الغبـار فـى أرض نائمـة مفروشة بالحصى !.. لسنا نصدر أحكامـا بهـذه الكتـب السـريعة ، وإنمـا نحن نطرح مسائل ونلقـى بفـروض ، سـوف يلتقطهـا ويجمعهـا البـاحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال !.. اتفقنا إذن ، أو ينبغى لنا أن نتفق على أى حال ، حتى ننصرف إلى شىء جديد !..

إن البحث عن الجديد هو الخليـق عنـدى بـالمجهود !.. ولقـد فتـح لنـا اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » !.. قال لى ذات مساء إنـه يـود لو وضع كتابا فى أصول النقد !.. النقد ؟.. لفظ رن فى أذنى ، وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخلق » !.. وقلت فـى نفسـى : مـا يمنـع مـن إتمـام الكـلام فـى رسـالة ثانيـة يكـون موضوعهـا « النقد » ؟.. وإذا الأمر ينكشف لى عن قضية كبيرة :

أنعد النقد كالخلق ، خاضعـا لسـلطان التيـارات الفكريـة الثلاثـة التـى ذكرتهـا فـى ردك : التيـار المصـرى القديـم ، والتيـار العربـى ، والتيـار الأوربى ؟.. أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات ؟.. أمـا أنـا

فلن أجيب من فورى عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدرى أين يحط بى القلم !.. دعنى أولا أنشئ على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية . إن الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل فى نظر الفن ، لأن الغاية فى الفن لا تبرر الوسيلة !.. الحياة كذلك ، تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق ، أهى شىء غير وسيلة متينة التكوين ؟.. ألها معنى غير ذلك الطريق المبين الذى أوله ضباب وآخره ضباب ؟.. خط هندسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتدأ ، كيف انتهى ؟.. لا يعنى ذلك علم الهندسة !.. إنه خط بين نقطتين وكفى .. ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم !.. إن الغاية لا تهم .. إنما المعنى كله فى الوسيلة .. الحياة هى الطريق ، العلم هو الطريقة ، الفن هو الأسلوب !.. أما الغاية فلا غاية !.. وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوما من الأيام ؟.. محال .. ما نحن إلا أسلوب الخالق .. ما الكون إلا أسلوب !..

الأسلوب كل شىء عند كل خالق ، وفى كل خلق .. إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود « غاية » : لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء .. فى اعتقادى أن كلمة « غاية » من صنع العقل البشرى الصغير !.. هذا العقل المحدود الذى يضع كل شىء دائما داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شىء أول وآخر .. إنما الخلود فى الأسلوب ، لأن الأسلوب لا أول له ولا آخر ، فهو شىء كائن دائما لا علاقة له بالزمن !..

إن رجل الفن .. وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر .. يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية ، لأن الغاية فانية كاسمها ، وإنما يعيش الفن بالأسلوب !.. لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من بناء « البارتينون » !.. دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد

ماتت ، وبقى أسلوب الفن وحده خالدا فى « الأهرام » و « البارتينون » !.. خدمة الإنسانية غاية العلم فى نظر البسطاء ، ولو سئل عالم في ذلك لابتسم : « مالى وللإنسانية ؟!.. إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم !.. إنما هى لذة البحث فى ذاتها .. إنما هى طريقة البحث وأسلوبه .. ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لعينى الباحثة جمال أسلوب الله ، لما تجشمت جهدا فى سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » !..

المخترعات كذلك ليست غاية العلم .. هى تطبيق للعلم !.. إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال ، لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون : « فيثاغورس » مثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص .. الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق . وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر ، ولعل كل ما أوتيه الإنسان — من سليقة سامية منذ أول الأزمان — ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الإنسان .. هذا المنطق الذى نشأنا عليه ونرجع إليه فى كل حياتنا ، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التى تربط الشيء بالشيء ، — من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟..

أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق ، فتحت البشرية عينيها فألفته حولها ، فهو موجود قبلها ، وقبل الخليقة ، كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء .. إن أسلوب المبدع فى صنع الحقيقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها !

المنطق ، إرتباط السبب بالنتيجة ، والشيء بالشيء ، والجزء بالكل . والتناسق والتناسب صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم ، !.. أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير . وما أول صورة

رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفى بتلك الصفات !.. إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف « المنطق » صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية ، تسبح فى أنحاء نفسه ولا يعرف ما هى .. إن المنطق الذى شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق الذى شيد الكون .. ما المنطق ؟.. ما معنى المنطق ؟.. سره فى تلك المرآة العظيمة الصافية التى تحيط بنا كالجدران .

الوجود ، أجمل مثال المنطق فى الأسلوب ، ينبغى لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر !.. كل شيء فى هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة ، وعلى قاعدة واحدة .. ما القاعدة التى بنى عليها الوجود ؟.. هى القاعدة التى بنيت عليها الأهرام .. هى قاعدة كل بناء .

التماسك بين الأجزاء فى كل واحد منسق .. هذا التماسك ما علته ؟ وكيف يكون ؟.. قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون فى صيغة بسيطة من لفظين : « الأخذ والعطاء » !.. كل شىء فى هذا الوجود يحيا على نمط واحد !.. وكل حياة فى هذا الوجود لها مظهر واحد .. « أخذ وعطاء » فى حركات متصلة متشابهة[1] . زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء ، اكتساب وإشعاع عند النجوم والأشياء . الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال فى حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم ، وفى حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد ، وفى حياة المادة والروح ، وفى حياة الأرض والأجرام والسدُم !..

ليس فى الوجود شىء لا يأخذ ولا يعطى .. ليس فى الوجود شىء يعطى ولا يأخذ !.. كل شىء فى هذا الكون يعتمد على كل شىء فى هذا الكون : بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا ، وكل خلق بنيان ،

---

(١) تعريف شخصى للحياة ، أدبى الصيغة بالقياس إلى تعريف « كلود برنارد » العلمى الصيغة .

ولا بنيان بغير وحدة شاملة ، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر ، وبين الجزء والجزء !

يتساءل « هنرى بونكاريه » فى كتابه « قيمة العلم » : « أيحق لنا أن نتكلم فى سبب ظاهرة من ظواهر الكون ، ما دام كل جزء من أجزائه متصلا بكل جزء برباط التضامن ؟.. إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد ، بل نتيجة أسباب غير متناهية فى العدد !.. إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست فى الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله فى لحظة سلفت !.. » .

فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متآلفة ، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك القانون : « الأخذ والعطاء » !

ليس هذا كل المنطق فى صنع الوجود ، إنما المنطق تركيب ذلك القانون .. ما قوام الأخذ والعطاء ؟.. هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات ؟.. ما الحال لو أن الخالق أبدع وجودا آخر على أسلوب آخر ، فصنع أناسا يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق ، ومخلوقات تأكل ولا تصرِّف ، وأجراما تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع ؟.. أى اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟ لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء .. لا خلق ولا بناء فى الكون أو فى الفن بغير وحدة الأسلوب ..

كذلك فى مادة الأجزاء ، هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد فى مواد البناء ؟.. أى اتصال بينى وبين أخى وابنى ، لو أن الخالق صنعنى من عناصر غير عناصرهما ، فجعلنى من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار ؟ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفردا بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق ؟.. أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ، والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟..

لا ارتباط بغير تشابه وتماثل ، ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة فى التركيب !.. إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا فى بعض العناصر .. بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود .. إنا نعرف الأجرام ، لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد !..

التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء !.. الاختلاف كذلك شرط آخر !.. وهل يقوم أخذ وعطاء إلا بين كائنات مختلفة !.. ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء ككل شيء ، فجعل كل رجل ككل رجل وكل جرم ككل جرم ؟.. طبع واحد ، ومنظر واحد ، وحجم واحد ؟.. أليس هذا التشابه المطلق ينفى الشخصية ؟.. وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء ، ولا تماسك ولا اتصال ، وهل من صلة بينى وبين غيرى إلا لاختلاف شخصه عن شخصى ، وما عنده عما عندى !.. وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها فى الأحجام !.. الجاذبية ، الحب ، هل علتهما إلا اختلاف النسب فى القوى والأشكال ؟.. إن مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد ، مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ ، يتكلمون عين الكلام ، ويتحركون عين الحركات ، ويتصرفون عين التصرفات !.. أية علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات ؟.. وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر ؟.. وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة « أنا » ؟.. لابد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يمتاز كل كائن من الآخر ، ومتى امتازت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء ، وهما سر التماسك فى كل بناء ..

ها هنا إذن قوام التناسق : « التشابه لا كل التشابه ، والاختلاف لا كل الاختلاف !.. » .

« بيتهوفن » هو الذى كشف لى منذ سنوات عن سر التأليف بين صوتين فى عين الوقت ، فقد لحظت أنه جمع بين صوتين متشابهين

لا كل التشابه ، مختلفين لا كل الاختلاف ، وأدركت ألا تناسق بغير هذا !.. فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما فى الآخر ، وما ميزنا غير صوت واحد !.. ولو أنه جعلهما مختلفين كما الاختلاف لاستحال على أذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران ، فأساس « التناسق » فى الموسيقى والفن ، كأساس التناسق فى الحياة والكون : ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينهما لا كل الاختلاف !..

جملة القول عندى أن أسلوب الله فى صنع الكون هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الإنسانى للجمال منذ مبدأ الأجيال ، أما نقاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين .. إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو فى رجاء إلى شعاعين من الكهرباء ، صادرين من عدسات عينيه الجامدتين .. القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم ، فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حواسم متواليات ، فإذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقر له بالغلبة والسلطان ، وإذا كل شىء يطلب إلى العلم تفسيرا ، وإذا العلم فى نشوة الظافر وبسمة الواثق ، لا يأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه ، وإذا العلم — هو علم المادة — يريد أن يتحدث فى شئون الروح !.. وإذا سئل عن الروح قال : دونكم هذا الطريق !.. وأشار إلى عين الطرائق التى أدت إلى الفوز فى شئون المادة : التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج والاستقراء الخ !..

بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ، وظل يسمو فى المرتبة على مدى الأزمان ، حتى بلغ القرد جد الإنسان !.. نظرية جميلة ، خلب جمالها اللب ، على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول !.. أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام .. ولكن !.. وهنا القضية : أتصدق هذه على الروح أيضا

وشئون الروح ؟.. الإحساس بالجمال ، أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء ؟.. ؟.. نعم ، نعم ، نعم .. هكذا قالت المدرسة الإنجليزية : « سبنسر » ، « جرانت » ، « ألن » ، « رسكن » ، وكان لابد لهذه العقول التى فتنتها نظرية التطور فى المادة أن تبرر للناس نظرية التطور فى الجمال !..

وعجب الناس لنظريات علم « طبقات الأرض » وعلم « الحيوان » وعلم « الحياة » وأبحاث « لامارك » فى تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية « هبوليت تين » تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن : الوحى والإلهام مقاييس الحرارة وموازين الأحجام !..

بل إنى لأرى إصبع العلم قبل ذلك بقرن تقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها فى الجمال : « عمانويل كانت » !..

ولك يكف العلم هذا التوجيه والتأثير ، بل تناول بيديه فى هذا العهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشرط والمسبار « علم النفس الحديث » وقضى الأمر ، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم !..

لست أزرى بطرائق العلم ، فهى وسائل البشرية التى لا تملك غيرها !.. وأذكر يوم كنت أرصد وقتا للتفكير فى هذه المسائل أنى بسطت أمام نفسى هذا السؤال الساذج : الحيوان .. ما علمه بالجمال ؟.. حصان بين مهرتين ، إحداهما جميلة مليئة شهباء ، والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء ، إلى أيتهما يميل ؟.. ما ترددت يومئذ أن أقول فى ثقة واقتناع : « إلى الجميلة يميل » .. ما وجه الترجيح ؟.. لست أدرى ، وحبذا التجربة فهى الحكم والفيصل !.. لكنى يومئذ كنت أفكر تفكيرا صرفا فى أبراج عاجية ، اعتدت أن آوى إليها للتفكير الهادئ ، فأين لى بالخيول والأفراس أجرى عليها التجاريب ؟..

فهأنذا أقر بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة ، وأقر بأنى شعرت يوما بالحاجة إلى ممارستها فى شئون الجمال .. غير أنى على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم فى شئون المادة تصدق دائما فى شئون الروح !.. لا شيء يستطيع أن يقنعنى بأن إحساس الجمال وليد تطور ونشوء !. بى رغبة أن أصبح بغير دليل فى يدى بأن إدراك الجمال ولد كاملا فى قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب اللّه فوعاه !.

إنى أخشى أن نقع فى الغلط ، إذ نطبق نظريات المادة فى مسائل الروح ، وهل تستطيع أن تجيز قول « رسكن » و « جرانت ألن » فى « الإلياذة » :

« .. ما كان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان !.. ففى « الإلياذة » ما كان يوصف منظر طبيعى لذاته ، بل لمنفعته للإنسان ، كأن يكون مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه فيه الجياد !.. ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا أنها لذاتها محل للوصف !..

إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا فى العصر الحديث ، حيث استيقظ الإحساس بها .. إحساس صاف خالص لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة .. » .

ماذا أقول فى هذا الكلام ؟.. أهو جهل بمشاعر الأقدمين ؟.. أم تورط فى تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟ .. أتصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوهم من الحيوانية ؟.. أنصدق أن « هومير » لم يحس جمال الطبيعة لذاتها ؟.. أهذا « رسكن » يقول هذا الكلام ؟.. أما أنا فقد مضى كلامى فى الطبيعة والقدماء ، ورأيى الذى أبديته فى رسالتى الأولى أن الأقدمين كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها .. لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة

ونغم من أنغامها ، أما « رسكن » و « ألن » أو الإنسان الحديث فلا يحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة ، وعن كل شيء !..

ودليلى فن القدماء من مصريين وإغريق : أهذا فن قوم لا يحسون الطبيعة لذاتها ، ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟.. إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى النظريات ؟.. من أجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك .. أحب طرائق العلم .. لكنى أخشى نتائج العلم .. فلنترفع بالروح قليلا ، لست أريد أن أضع الروح تحت مِبضع العلم ، رهبة منى أن يشقها فيجدها غلافا أجوف .. وإنى لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمى للمرة الأولى ، أى قلق يومئذ مزق إيمانى بقيمة الإنسان ؟!.. كلا — إنى كرجل من رجال الروح لا أريد أن أفجع فى خير ما أعيش به وله .. يريح نفسى دائما أن أقول إن عقل العلم لا يكفى .. ولابد — دون إدراك الجمال والروح — من العودة إلى القلب !.. أريد ألا يخرجنى العلم من ذلك الإيمان الذى كان يضىء فى قلوب المصريين القدماء ، إيمان قربهم من الخالق ، فإذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب اللّه ، والنفوذ إلى قوانين إبداعه . إن أقصى العلم الإيمان !.. أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر ، الذى عرفه أيضا الفلكيون العظام فى القرنين السادس عشر والسابع عشر : « كوبرنيك » و « جاليليه » و « كيلر » . إلى آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالإيمان !.. كانوا ينظرون إلى الكواكب ، كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون ، لا بعين العقل وحده بل بعين القلب أيضا !.. كانت السماء والنجوم فى نظرهم مخلوقات حية !.. كانوا أيضا يحسون — فى كتلة النجوم وفى هذا الكون بأكمله — الروح الخالق ويد المبدع الأعظم .. ما أروع هذه العبارة من « كيلر » !.. فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسى : « .. كل الخليقة ليست سيمفونية عجيبة فى مجال الروح والأفكار ، كما هى فى مجال الأجسام والأحياء ..

كل شيء متماسك مرتبط بعرا متبادلة لا تنفصم .. كل شيء يكوّن كلا متناسقا .. .. إن اللّه قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الإحساس بالتناسق .. كل ما يوجد حى متحرك ، لأن كل شيء متتابع متصل .. كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس !.. إن روح النجوم هو سر حركتها ، وسبب ذلك الحب الذى يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية .. أولئك رجال ساروا فى بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب ، أولئك هم العلماء العظام !..

أرى أنك قد استشفقت رأيى بعد هذا التمهيد !.. نعم ، ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول : إن التيارات الثلاثة التى ذكرتها تصدق أيضا فى النقد ، كما تصدق فى الخلق .. أما التيار الأوربى فى النقد فهو المرتكز على العلم . ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به ، وإن بعض كتب النقد التى ظهرت أخيرا فى مصر الحديثة تنم عن هذا الاتجاه العلمى . وهو أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ، ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا ، إذا أردنا أن ننشىء لآدابنا طريقة شخصية كاملة فى النقد !..

فأما التيار المصرى القديم فهو النقد المعتمد على الذوق ، أى سليقة المنطق والتناسق ، وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخلى للأشياء والتناسق الباطن ، أى القانون الذى يربط الشيء بالشيء !.. أى جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسى الخفى وتلك القوانين المستنيرة التى قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ؟ جمال عقلى داخلى ، كذلك أسلوب الخالق لا يعنى دائما بالجمال الظاهر وحده فى خلق الطبيعة ! فأى جمال لجبل المقطم ؟.. إن الجمال الظاهر نسبى لا يقدره غير الإنسان . إنما المنطق الداخلى للأشياء هو كل جمالها الحقيقى ، هذا

الإدراك للجمال الخفي فطن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا « الأهرام » : لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذى يسر العين ، إنما أرادوا أن يصنعوا بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة فى روعتها وضخامتها وتأثيرها ..

وقد تمت المعجزة ، وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين تعبر الأهرام عبورها جبل المقطم سواء بسواء ، وكأنما اختلط الأمر فى ضمير الزمن وضمير البشرية ، فارتفع هذا « الخلق الآدمى » إلى « مقام الظواهر الطبيعية » !.. أولئك قوم أرادوا أن يقلدوا أسلوب الله فى عظمته ودقة قوانينه ، فأعانهم الله على ما التمسوا ، وكشف لهم عن بعض أسراره وطرائقه !.. هذا المقياس المصرى القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد فى حياتنا الفكرية ، أو فى أحكامنا الفنية ؟.. أما التيار العربى القديم فهو النقد الذى قوامه ذوق الحس ، أى سليقة المنطق الظاهر والتناسق الخارجى !.. الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذى يسر العين ويلذ الأذن .. أنستطيع أن نتخيل العرب تبنى الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟ .. لقد جاء العرب مصر ، وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا فى الأهرام إلا شيئا قد يحوى نقودا مخبوءة ، أما بناؤه فشىء لا يحسب فى الفن ، إنما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شىء . المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسنا بزخارفها ، زينة للناظرين .. بغير هذا فلا عمارة ولا فن ، الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة ، وألفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن !.. الجمال عند العرب جمال إنسانى ، والفن عندهم شىء صنعه الإنسان لنفسه وللذته .. الفن العربى القديم فن إنسان دنيوى ، والفن المصرى القديم فن إلهى دينى ، لهذا اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنين ، أحدهما يعنى بالتناسق الشكلى الذى يروق الإنسان ، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفات إلى الإنسان !.. ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى

اليوم بالحكم فى قضايا الشعر والأدب !..

هذا المقياس العربى ذو الإبرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ !.. إنما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر أمره ، يعنى المقياس المصرى !..

إنى — يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا — كان يجب علىّ أيضا أن أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد ، بجانب المقياس العربى ..

« كوم حمادة » فى سبتمبر عام ١٩٣٣م — من رسالة إلى « طه حسين » .

بين الخالـق والناقـد

.. حقيقة أذكر أنك كنت عازما على نقد كتابى « محمد » ، فما الذى منعك ؟ وأذكر أيضا أنك أفضيت إلى بخوفك أن يسىء بعض رجال الدين فهم مرادك ، فأضار أنا بذلك ، وهى عاطفة نبيلة حمدتها لك .. على أنى فيما أذكر أيضا قد شجعتك على المضى فى نقدك ، وهو فى جملته لا يؤيدنى ، بل إنى قد وافقتك عليه معجبا بفراستك مقدرا لبراعتك فى الوقوع من فورك على المواطن التى يجوز فيها النقد والكلام ، فأنت ترى أن الموقف لم يغضب ، بل ابتسم واغتبط ليقظة الناقد !..

فى الواقع أنى لست أومن كثيرا بتلك الأسطورة التى تزوى عن غضب المؤلفين ، واسمح لى أن أتكلم بلسانهم فأقول : إن هذا الغضب لا يجد سبيلا إلى نفس الكاتب ، إلا إذا شعر من ناقده بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الحظ من القدر ، مبطن بسوء القصد !.. فالناقد الذى يحترم شخصى ويهدم عملى لا يغضبنى ، لأنى أعلم أن الأديب لا يهدمه النقد ، فهو كائن ممتاز لا يهدم ، ولا يقبض إلا بإذنه ، ولا يقضى عليه إلا بإرادته !.. إن الأديب لا يموت مقتولا ، بل يموت منتحرا .. ومع ذلك لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أى حال ، فإن الغضب علامة الضعف الآدمى ، ولا شىء فى الوجود أقوى من الابتسامة ، ولكن من ذا الذى أعطى القدرة على الابتسام الصافى الجميل ، فى كل موقف وفى كل حين ؟.. أهو الجبار وحده ؟.. ألا ترى معى أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟.. « إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم ، فابسم للقدر إذا

بطش بأحد » !.. تلك كلمة لـ « عمر الخيام » ، وضعتها فى صدر كتابى « عصفور من الشرق » الذى لم أكتب منه فى سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة ، قد انكشفت لبصيرتى آخر الأمر : عدم استكمال الصفة العليا التى يرتديها بعض رهبان الفكر ، كما ترتدى المسوح : الصفاء !..

إن كنت من رأيى فى كل هذا فإن لى عندك حاجة : أن تنشر معى تلك الابتسامة بين الأدباء ، فإن الأدب شىء جميل ، هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد لا تدخله الأحقاد .. إن أعجب ظاهرة فى أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنا تاريخ الأدب ، تلك الصداقات التى نراها فى آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال !.. ما الذى يعوزنا نحن ؟.. أهو شىء فى الخلق ؟.. أم هو ضعف فى النفس ؟.. أم هو نقص فى الثقافة ؟.. لست أعلم !.. إنما الذى أعلمه أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر ، هى أظهر دليل على نضج هذا الأدب ، وهذا الفكر !..

« القاهرة » فى يونيو عام ١٩٣٦ ــ من رسالة إلى « أحمد أمين » .

غاية الأدب والفن

.. « هذا هو الأدب الأمريكي يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية فى شتى شئونها ، ثم لم يكتبوا فى خيال وأوهام وأحلام ، إنما يكتبون أكثر ما يكتبون فى مشكلاتهم الحالية ، ومسائلهم اليومية ، وحياتهم الاجتماعية !.. وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان ، وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبو إليه ، فللأديب العربى أن يستوحى « امرأ القيس » أو « شهر زاد » !.. ولكن يجب أن يكون ذلك نوعا من الأدب ، لا كل نوع ، ولا هو النوع الغلب ، ولا هو الأرقى .. »(١) .

مع الأسف أرانى مضطرا أن أقول للصديق المبجل : إن استيحاء أساطير اليونان والرومان و « امرئ القيس » وشهر زاد ، هو النوع الأرقى فى الأدب .. فى كل أدب .. لا فى الماضى وحده ولا فى الحاضر .. بل فى الغد أيضا وبعد آلاف السنين ، ما دام الإنسان إنسانا ، وما دام رقيه الذهنى بخير لم يصبه نكاس ، فالإنسان الأعلى هو الذى يصون « الجمال الفنى » عن الاشتغال الأرضى فى أى صورة ، ويحتفظ فيه بمتعته الذهنية وثقافته الروحية !.. وإن اليوم الذى نرى فيه « الأدب » قد استخدم للدعاية الاجتماعية ، و « التصوير » استغل فى معارض الإعلان عن السلع التجارية ، و « الشعر » جعل أداة لإثارة الجماهير فى

---

(١) مقال لـ « أحمد أمين » نشر فى مجلة « الثقافة » عام ١٩٤٤م .

الانتخابات السياسية ــ هو اليوم الذى نوقن فيه بأن الإنسان قد كر فانقلب طفلا ، يضع فى فمه تحف الذهن وطرف الفكر ، لأنه لا يدرك لها نفعا غير ذلك النفع المادى المباشر !..

والأدب الأمريكى الذى يعجب به الدكتور « أحمد أمين » هو فى أغلبه صحافة راقية أكثر مما هو أدب حقيقى !.. والأدب الحقيقى فيه هو ما استند إلى أساطير اليونان والرومان ، أى مخلوقات الإنسانية التى أبدعتها أحلامها الجميلة وخيالها الرائع .. فالخلاف بينى وبين صديقى « أحمد أمين » هو على معنى « الرقى » . فأنا لا أسلم أبدا بأن رقى الإنسان هو فى تقدم أسباب معاشه المادية .. هذا حقا هو الرقى بالمعنى الأمريكى . ولكن الرقى بالمعنى الإنسانى المثالى شىء غير ذلك .. أن الإنسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شىء فى فمه ، ولكنه ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية ، لا علاقة لها من قرب أو بعد بضرورات حياته المادية أو الجمانية !..

هذا هو الفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان ، فالحيوان لا يحتاج إلى أن يطرب لبيت من الشعر أو لصوت من الغناء أو لتمثال من الرخام ، ولا يمكن أن يخطر له على بال وجود عالم آخر غير عالم الأكل والشرب والمأوى . ولو نشأ أدب بين فصيلة من الحيوان لكان هذا الأدب فى رأيى قائما فى جملته على مشكلات العراك على صيد الفريسة ، ولاقتصر خياله على الحلم بأن فى بطن كل سبع غزالا سمينا ، وفى فم كل حيوان فى الغاب ــ صغر أو عظم ــ غذاء موفورا بغير وثب ولا بحث ولا تربص ..

بل فلنأخذ مثلا جماعة النحل أو النمل . وقد بلغت من الدقة والتناسق وروح التضامن فى نظامها الإجتماعى ما أثار الدهشة ، هذا المجتمع الذى شيده النحل على هذا الأساس من « الوعى الاجتماعى » لا « الوعى الفردى » لو قامت فيه نحلة شاعرة أو أديبة ، أو ظهر فيه أدب وشعر ــ فما يكون نوعه واتجاهه ومراميه ؟.. لا شك عندى أن هذا الأدب

أو الشعر سيكون له عين المرامى التى ينزل إليها « الأمريكان » ويتمناها لنا « أحمد أمين » .. سيتحدث أدب النحل وشعره عن الأزهار من حيث كمية عسلها ، ونصيب كل عامل عن عمال النحل فى نقله وإعداده والانتفاع به فى الخلية ، وعن حقوق الطوائف العاملة وواجباتها ، ومشكلاتها اليومية وشئونها الحيوية .. أما الذى لن يحدث أبدا فهو التفات النحل فى أدبه أو شعره إلى حسن الأزهار فى ذاتها ، وإلى بهائها فى ألوانها ، وإلى تمايلها اللطيف مع النسيم ، كأنها تراقصه ، وإلى تفتحها ابتساما للفجر وهى تعانقه ، وإلى نداها بدموع الليل وهى تفارقه !.. لن يفطن النحل إلى هذا أبدا .. ولو فعل لانقلب إنسانا فى لحظة واحدة . كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية . وهذه سماها فيما سماه : الفن والأدب ، وحرص على أن تبقى ـــ على قدر المستطاع ـــ بعيدة عن تفاهاته الأرضية ، لتذكره من حين إلى حين أنه ليس حيوانا .. وهنا عظمة الفن والأدب ، ولكن مطامع الناس شاءت أن تمد أيديها الفانية إلى هذا الجوهر السامى لتسخره فى شئون الأرض ، فرأينا الشعر والأدب يتجهان إلى غايات نفعية ، فاستخدم الشعر أحيانا لمدح الملوك والأمراء من أجل المال والثراء ، أو لنشر الدعوة فى الدين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء !..

ولكن كلمة الفن هى العليا دائما ، وحكمه هو النافذ وحده ، وها هو ذا قد حكم لـ « امرئ القيس » الجاهل ، فرفعه وقدمه على داعية الإسلام « حسان » ، وفى هذا الدليل على أن الفن الخالص لوجه الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى .. وذلك ما لا يسلم به « أحمد أمين » ، فهو يعتقد أن الفن المسخر لخدمة الضرورات اليومية فى المجتمع هو الفن الأرقى ، متأثرا ولا ريب بتلك النظريات الحديثة فى السياسة والاقتصاد التى ترمى كلها إلى تملق الجماهير ، ومداهنة الدهماء ، ومصانعة

الجماعات والنقابات والهيئات ، ومسايرة الكتل والسواد من الناس والشعوب ، موهمة إياهم بجعل كل شيء في خدمتهم .. وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوى ، لأن السواد والكتل لن يطلبوا أبدا ، ولن يعرفوا غير هذا النوع المادى من المطالب . فإذا أردنا تسخير الفن في هذه الأغراض فمعنى ذلك الهبوط به إلى ذلك اللون من أدب النحل .. أو على الأقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهداية !

أما إذا كان في الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا فإني أرحب به ، وأسلم من الفور بأنه الأرقى !.. ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان !.. فمن أين لنا في شعرنا بأمثال « المتنبي » ؟ لقد أعدت قراءة ديوانه منذ أسابيع لأنظر كيف بقي ذلك الشعر الذى خرج من وحى الدنانير . الحق أن المال كان باعثه ، ولكن الفن كان غايته .. ذلك الذهن الذى أبدع صورا يرى لها أحيانا حركة ويبصر لها بريق ، ويسمع لها رنين ، كما في قوله :

وأمواه تصل بها حصاها   صليل الحلى في أيدى الغوانى

ماذا يعنينا منه أن يكون حافزه استجداء مال ، أو مدح ذى سلطان ، أو خدمة مجتمع ، أو تملق شعب ؟.. المهم أن يكون هنالك فن قبل كل شيء .. بغير هذا ما عاش لنا « المتنبي » حتى اليوم ، فالسلطان يذهب ، والدولة تدول ، والشعوب تتغير ، لكن الفن باق !..

أما بعد ، فليتجه الأدب العربي حيث شاء له « أحمد أمين » وليخدم الجماعات ومشكلاتها الحالية ، ومسائلها اليومية ، ومطالبها المادية ، وليبتعد عن « الفردية » التي هي أساس كل فن ، والتي بغيرها لا يقوم فن ، وليتجنب « تراجم الأفراد » أو ترجمة الكاتب لنفسه ، أو تحليل الأدب لبعض الشخصيات أو روايات الغرام ، أو نحو ذلك مما يراه

صديقى من قبيل النزعات الفردية ، ولننكر الحقيقة القائلة : إن « الفنان » إذا لم يقل « أنا » فهو ليس بفنان ، كما أن العالم الذى يقول « أنا » ليس بعالم !.. لننكر ذلك مؤقتا ولننتظر .. عسى أن يخرج لنا أثر فيه الفن ، وفيه منفعة السواد !.

الفــن والإصــلاح

لم يزل موضوع الأدب العربى ومستقبله فى حاجـة إلى كـلام ، على الرغم من الأدلة القوية التى ساقها « أحمد أمـين » فـى رده علـى كلمتـى السابقة ـ وأخشى أن يتبادر إلى الذهن أننـا نتجـادل فـى قضيـة لنـا فيهـا مصلحـة ـــ فـالواقع المعـروف أن أكـثر مؤلفـات « أحمـد أمـين » ، مثـل « فجـر الإسـلام » و « ضحـى الإسـلام » و « قصـة الفلسـفة » الخ . بعيدة عن الاتجاه القومى أو الاجتماعى الذى يرجوه لأدبنا العربى ، كمـا أن بعـض كتبـى ، مثـل : « عـودة الـروح » و « يوميـات نـائب فى الأرياف » قد رمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن . فالقصة الأولى (عندما نشرت بالفرنسية فـى باريس عـام ١٩٣٧) كتـب عنهـا نـاقد يقول : « .. لو كان « بريس BARRES »[1] حيا ، واطلع عليها لنعتهـا بقصة النشاط القومى .. » كما أن الكتاب الآخر يرمى كمـا هـو معلوم إلى نقـد المجتمـع الريفـى بحكامـه ومحكوميـه .. فأنـا إذن أقـرب إلى تلـك الدعوة ولى فى نجاحهـا مصلحـه أكـثر ممـا لصديقـى « أحمـد أمـين » .. ولكن العقيدة الأدبية والإيمان الفنى أقوى فيما يبدو عند كل منا ، وأرفـع مـن المصـالح الخاصـة والغايـات الشـخصية ، فمناقشـتنا اليـوم تقـوم فـى جوهرها إذن على الرغبة المجردة فى الوصول إلى غرض واحد : هو كيـف نبلغ بأدبنا العربى قمة الكمال ؟.. الغاية واحـدة ولا ريـب ولكـن السبل

---

(١) الكاتب والسياسى المشهور . صاحب المؤلفات القومية النزعة .

مختلفة ، « أحمد أمين » يرى أن أدبنا لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوربية إلا إذا خاض مثلها فى طريق الحياة العامة فنقد الفاسد من أوضاع المجتمع ، وقوَّم المعوج ، واقترح وسائل الإصلاح ، ونادى بالنافع من العلاج ، والمستحدث من النظم ، وكان له من أعلامه قادة للرأى العام ، يبصرونه بمواقع خطاه فى طريق التقدم الاجتماعى ، واتخذ من « أناتول فرانس » و « برناردشو » و « تولستوى » مثلا يحتذى ..

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل من الحق أن الأدب الأوربى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟.. وهل نزعات الإصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب فى الآثار الأوربية ، أو أنها لون ليس بالغالب حتى فى آثار المؤلف الواحد ؟..

الذى أعلمه هو أن « أناتول فرانس » أديب ، وأن « برناردشو » مؤلف مسرحى ، وان « تولستوى » قصصى .. وتلك هى صفاتهم التى تؤخذ على سبيل الجد !.. أما ميول « فرانس » و « شو » الاشتراكية ، ونزعات « تولستوى » الإصلاحية ، فهى نواح ينظر إليها تارة بغير احتفال ، وتارة أخرى على أنها توابع أو ظواهر أو دلائل قد تفسر على ضوئها بعض أعمالهم ألدبية وآثارهم ألفنية !..

إن الآداب الأوربية لم تحترم يوما فنانا أو أديبا لأنه مصلح ، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديبا أو فنانا : ولعل أبرز مثل لذلك هو « إبسن » فقد هزته أحداث بلاده السياسية والاجتماعية فكتب تمثيليات بروح الإصلاح ، مثل « براند » و « عدو الشعب » و « بيت العروس » الخ .. ومات « إبسن » وتغير مجتمعه ، ونظر الناس فى أعماله .. وكاد يهزأ النقد به وبآرائه فى السياسة والمجتمع ، لولا فنه . وهكذا مات المصلح فى « إبسن » وبقى الفنان !..

نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائما كلمة « مصلح » بقدر ما نستهين

بكلمة « فنان » وإنى لا أنسى دهشتى يوم قرأت فى مجلة « ماريان » الباريسية نقدا للطبعة الفرنسية من « يوميات نائب فى الأرياف » ، للناقد المعروف « رامون فرنانديز » يقول فيه : إن القارئ لهذا الكتاب ينسى فى أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التى حركت المؤلف لوضع كتابه ، بل إن القارئ يتمنى ألا يتغير شىء فى عالم هذه المخلوقات الإنسانية !..

صدمنى هذا القول ، لأنى كنت أعتقد أن مقاصد الإصلاح لها الاعتبار الأول فى مثل هذا النوع من الكتب ، وأن صفة المصلح هى التى يجب أن توضع موضع التقدير !..

لقد تحدث الدكتور « أحمد أمين » فى أكثر من موضع عن الروايات الغرامية ، وعرامة الحب ، بما ينم عن الازدراء .. فذكرنى ذلك من فورى برواية « شكسبير » : « روميو وجولييت » ، وقلت فى نفسى : ها هى ذى قصة ليس فيها إصلاح لمجتمع ولا نهوض بشعب ، وكل ما فيها عرامة الحب .. ومع ذلك خلدتها الإنسانية ، حيث طرحت ومزقت كثيرا من صفحات المصلحين وكتابات الهادين والمرشدين .. إن الإنسانية لأدرى بما يسرها وأعلم بما يسعدها منى أنا ومن أخى « أحمد أمين » .. كم من المؤلفات المملوءة بالإرشاد والإصلاح قد نشرت وظهرت ، ولم تحتفظ بها ذاكرة الزمان .. ولكنها احتفظت بقصة غرام ، وقصيدة غزل ، ورواية حب عارم !..

وإذا كان حقا أن الزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، فماذا نقول فى بقاء « روميو وجولييت » وفناء الكثير من القصص الإنكليزى الذى قصد به إصلاح المجتمع ؟ بل ماذا نقول فى خلود قصة « غادة الكاميليا » لـ « دوماس الصغير » وموت أكثر رواياته الأخرى التى عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جد وحسن قصد !..

كلا .. لا ينبغي أن نملي على الفن اتجاهاً بعينه ، ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة ، أو رداء الإصلاح الوقور !.. إلا أن يشاء هو ويرضى ، لأننا إذا أرغمناه سخر منا ، وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مساخر ، وقلب بسحره أثواب الهزل خلوداً تنحني أمامه الجباه على الرغم منا .. لقد أصاب « أندريه جيد » إذ قال : إن الفن لا ينبغي له أن يثبت شيئاً ، ولا أن ينفي شيئاً .. إن الفن العالي ليس أداة للجدل .. إنما هو شيء كالسحر ينفذ إلى النفوس فيحدث فيها أشياء .. إن الفنان ليس مصلحاً ، ولكنه هو صانع المصلح !.. كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ، ما كوَّنهم وهيأهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء ، وشعر الشعراء ، وفن الفنانين !..

إن الفنان هو المصلح ولا شيء غير ذلك ، أما أن ينزل الفنان بفنه إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح ، فهذا ما لم نره حتى الآن في فن استحق البقاء في أي أمة من الأمم ، أو حضارة من الحضارات .. من الحق أن بعض أهل الفكر والفن قادوا الرأي العام في بلادهم وبلاد العالم ، ولكنهم كانوا في الواقع يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة ، من واجبها أن تبدي آراءها في المسائل الكبرى ، لا باعتبارهم فنانين يقحمون فنهم في ميادين الشئون اليومية . لطالما تحدث الشاعر « فاليري » عن المشكلات الإنسانية التي تمس المجتمع العالمي الحاضر ، ولكن هل رأيناه وضع ذلك في قصيدة واحدة من قصائده ؟..

إن قيادة الرأي العام واجبة على الأديب ، ولا ينسى « أحمد أمين » ندائي إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية في أول هذه الحرب ، وما قام حول هذا النداء من جدل . ولكن الذي أراه خطراً على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاهاً بعينه في صميم فنه .. وحسبنا أن نتأمل حال الأدب في البلاد الدكتاتورية التي كبلت وحي

الأدباء بالقيود ، فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة ، تفوح برائحة واحدة ، كأنها خارجة من مطبخ واحد .. إن الفن هو الحرية ، حرية الفكر والشعور .. ولا منبع له إلا فكر الفنان وقلبه ، هما وحدهما الهاديان له .. إن الوعى الفردى هو روح الفن ، فإذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض ، فلنقتل فيه ذلك الوعى الفردى .

ولقد أصاب صديق الطرفين الكاتب الكبير « العقاد » إذ قال فى تعليقه على مناقشاتنا هذه : « إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية » ، وهذا حق ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية .. هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها ! .. إن الحيوان لا يفكر بفكره ، ولا يحس بإحساسه .. إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله !.. ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه .. إن الوعى الاجتماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيوانا ، والفردية : أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنسانا ..

على أنه لا ينبغى الخلط بين الفردية والأنانية ، فإنى حينما قلت : « إن الفنان الذى لا يقول « أنا » ليس بفنان ، كما أن العالم إذا قال « أنا » ليس بعالم » ، ـ إنما قصدت المعنى الفنى لا المعنى الخلقى !.. قصدت أن الفنان هو الذى يقول « إن الطبيعة جميلة » ، لأنى أراها جميلة ، أما العالم فلا ينبغى له أن يقول ذلك ، ولكن عليه أن يقول : « الطبيعة جميلة أو قبيحة ، ساكنة أو متحركة ، لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدى إلى هذه النتيجة » !

الفنان هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه ، والعالم هو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر ، وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الإنسانية ، ولا ينبغى لأحدهما أن يلجأ إلى وسائل الآخر فى استجلاء الحقائق ، واستكناه الطبائع !..

إن الفن مصدره الشخصى ، والعلم مصدره الموضوع .. الفن شخصى ، والعلم موضوعى .. الفن يقول « أنا » أى « نفسى » والعلم يقول « هو » أى « الشيء » !..

أما أن يخدم الفنان والعالم أمته وقومه فهذا واقع بالبداهة والضرورة ، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى ، ولا يمكن أن تبقى إلا إذا رأى الناس فى بقائها منفعة ، فلا ينبغى أن نقول للفنان والعالم : « اصنعا شيئا نافعا للناس » ، بل يجب أن نقول لهما فقط : « اصنعا فنا وعلما » !..

منابع الفن المصرى

فى عام ١٩٣٣م عقب نشر كتابى « أهل الكهف » جاءنى أديب صحفى يحادثنى فى شأنه ، ويسألنى عما حملنى على اختيار موضوعه ، فأجبته :

حملنى على ذلك شيء واحد : الرغبة فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى .. إنك تعلم أن أساس المأساة الإغريقية هو « القدر » !..!.. هو ذلك النضال الهائل بين الإنسان والقدر !.. فهل تعلم ما أساس المأساة المصرية كما أتصورها ؟.. أساسها « الزمن » .. أساسها ذلك النضال الهائل بين الإنسان والزمن .. اقرأ « كتاب الموتى » تحس ذلك للفور !.. عند الإغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين هو « الزمان والمكان » ، لكل من الشعبين تنين مخيف كتب على الإنسان قتاله !.. وأنت ترى أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » رأسه فى هذه الأرض ، وذنبه فى العالم الآخر المجهول !.. نعم إن « مصر » لا يمكن أن تفكر فى غير الخلوص إلى حياة أخرى .. دائما ما وراء الطبيعة .. دائما الفلسفة الدينية .. دائما ذلك الفزع من الموت ، وذلك الأمل فى انتصار الروح على الزمان والمكان !.. وذلك الانتصار إنما هو فى « البعث » !.. بعث لا إلى عالم آخر ، لا يعرف الزمان والمكان ، وإنما بعث إلى عين هذا العالم ونفس هذه الأرض بزمانها ومكانها ، ولقد شيدوا الأهرام لتقوى – على هذا التنين – حصون الروح فى حربها المخيفة مع عناصر الفناء الآدمى !.. التحنيط كذلك اختراع آخر ، ولدته

ضرورة الدفاع في تلك الحرب الضروس !.. أين تلك الحروب من حرب طراودة ؟.. لم تكن مصر فى حاجة إلى « هوميروس » منها يسطر أخبارها : لأن صليل تلك الحرب لا يوصف من قلم بشرى !.. إنها صيحات الروح تدوى طول الأبد من بين سطور « كتاب الموتى » .. إن أعظم مأساة لم تدون ، ولا يمكن أن تدون : « المأساة المصرية » !.. وبعد هذا تسألنى : ما الذى حملنى على كتابة « أهل الكهف » ؟.. إنها صورة ضئيلة وصدى خافت لتلك المبارزة بين « الزمن والإنسان » ، وفى قصتى « شهر زاد » صورة أخرى للمبارزة بين « الإنسان والمكان » .

ــ إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصرى القديم ؟..

ــ إنى أقول باستيحاء كل ما هو مصرى !..

ــ كيف نميز ما هو مصرى عما هو دخيل على مصر ، وقد دخلت مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟..

ــ فى مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا ، منذ عهد الأساطير الأولى حتى اليوم ، ذلك لأنها متصلة بصميم هذه الأرض ومستوحاة من نفس طين هذا الوادى الخصيب ، ومن نفس هذا النيل الخالد ! إن أفكار الإنسان وعقائده ودياناته وخرافاته إنما تولد من مظاهر الحياة التى حوله !.. ما « اليونان » بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط وجزر « اليونان » ؟.. وما أساطير « النرويج » بغير الغابات وبحر الشمال ؟.. وما فلسفة « الهند » بغير نهر « الجانج » المقدس وأدغال الهند !؟ كذلك هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التى تلد الخير فى كل عام دون أن يصيبها العقم أو يبدو عليها الهرم ؟.. شبابها خالد ، هذا الشباب الذى تفهمه مصر حق الفهم ، وها هى ذى آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد ، هل شاهدت فيها تمثالا واحدا يمثل إنسانا هرما ؟.. كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب ، لأن

كل مظاهر الحياة فى مصر من أرض وماء وسماء فتية قوية رقيقة ، ـــ تجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة !..

إن العمر لا وزن له فى مصر : آلهتهم وملوكهم وكهانهم وعبيدهم حليقون نحفاء ، لايبدو عليهم عمر ولا سن ولا أثر واحد من آثار الزمن !.. شباب وفتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء ، التى ما وخطها قط المشيب !.. إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفا منه ، واحتقارا له ، أو حفيظة عليه . كل ذلك جائز !.. إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيمانا عجيبا بانتصارها على الزمن رمز « العدم » بالبعث الدائم !..

فها هو ذا النيل فى انتظام يحيا ويموت مرة فى كل عام : موت وبعث ، وبعث ثم موت .. هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرات الحمراء !.. من هذا النيل خرجت أساطير البعث ، وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال « العدم » تشبثا بهذه الأرض المحبوبة ، لم تخلق الآلهة جنة سواها ، فهى المرجع والمآب ، يموتون عليها ويعودون إليها ، موت ثم حياة ثم موت !.. وهكذا إلى أبد الآبدين .. لا الموت يفنى ولا الحياة تفنى .. شأن هذا النيل فى حياته وموته !..

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة .. ولدت فى العهد الفرعونى الوثنى الأول ، فهل تزايلت مع العهد المسيحى أو مع العهد الإسلامى ؟.. كلا : لم تتزايل ، ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو الإسلام دينا لها ، لو لم تجد فى هذين الدينين فكرة البعث فى جوهرها ولبها !.. وقد رفضت مصر دين « إسرائيل » لخلوه من تلك الفكرة التى لا تعيش مصر بغيرها .. البعث هو نشيد مصر الخالد ، يغنّيه النيل فى كل عام .. والنبات والطيور والسماء والشعراء !..

ــ إذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة ، التى تصلح وحيا للأدب

المصرى الحديث فى رأيكم ؟..

ــ بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب .. بغير قوة القلب ــ أى قوة الإيمان والحب ــ ما كانت مصر تستطيع أن تنشىء هذا الفن العظيم الذى انتصرت به فعلا على الزمن ، ولا تزال تنتصر به عليه فى كل جيل .. وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال « شيخ البلد » أو تمثال « نفرتيتى » ما زال ينبض بالحياة ، ويحس حياته رواد متحف « اللوفر » ومتحف « برلين » !..

ــ ومصر فى عهد المسيح والإسلام ؟..

ــ مصر في العهد المسيحى ، كان فيها أدب قصصى دينى صوفى رائع ، تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة ، أكثر مما تلمح فيه الطابع الرومانى !..

ومصر الإسلامية شيدت مساجد ضخمة المظهر ، قوية البنيان ، بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء الإسلامى لخلتها معبدا فرعونيا فى عظمة الأثر الذى تحدثه فى النفس !.. ذلك أن فن العمارة الإسلامى يسمو بالزخرف لا بالبناء !..

والفن الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء لا بالزخوف ، لهذا السبب كان الفرق ملحوظا بين بعض مساجد مصر الشهيرة « قلاوون » و « السلطان حسن » الخ الخ . وبين المساجد الأخرى فى غير مصر . وكذلك كلما استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه أنتج فنا شخصيا لا صلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض !..

وقس على ذلك الشعر والقصص الذى ظهر فى مصر الإسلامية مفعما بروح هذه الأرض لا بروح البادية أو وحى أمة أخرى !..

ــ وما قولكم فى الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر ويطبعها بطابع خاص ؟..

ــ الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة فى إظهار

مكنون فكره .. أو هو الشخص كما قال « بوفون » !.. هذا صحيح إلى حد ما : إن الكاتب إذ يخلو إلى نفسه وقلبه ، ويترك التصنع والتقليد يستطع أن يهتدى إلى أسلوبه .. لكن لا تظن الطريق هينا : ذلك الطريق الوعر الطويل بين الإنسان وقلبه !.. إن القلب البشرى لأعمق من أن يُستكشف قراره من أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسخت فيها تجاريب جنسه وأمته آلاف السنين ، طبقة فوق طبقة ، فعليه إذن أن ينزل طبقات هذه البئر .. وهأنذا أعود بك إلى نغمتى الأولى :

حتى الأسلوب ينبغى لنا أن نبحث عنه فى أرض مصر وفنها على مدى الأزمان!.. ولقد سبقنا إلى ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف ..

الفن الحديث كله من تصوير ونحت وعمارة ، انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير ، فوجدها فى مصر القديمة : وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية « الكوبزم » ، وجد وسائل التعبير عن حقائق « الشكل » التى تخفى على العين العادية .. وجد أساليب الحركة والإضاءة فى التماثيل والأعمدة مما لا نظير له فى قوة الأداء وبساطته ، كل ذلك وجده الغرب ، وشيد على أساسه فنا جديدا ، ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلا وتأملنا مليا !.. إن كنوز قلوبنا العميقة لا قاع لها ، وهى أدنى إلى أيدينا من الغرباء !..

ـ وأى أسلوب اخترتموه لأهل الكهف ؟..

ـ لست أعرف .. على النقد أن يجيب !.. إن المؤلف لا يقع فى الخطأ إلا عندما يحاول الكلام فى عمله .. إن الإنسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يصفها إلا بالمرآة ، والنقد هو المرآة !..

ـ وهل ستقدمون « أهل الكهف » للتمثيل ؟..

ـ إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان فى مقدورى معالجة الفكرة فى قصيدة أو صورة زيتية أو فى قطعة موسيقية لفعلت !..

لقد كانت وسيلتى فى إخراج الفكرة هى الحوار ، ذلك القالب الذى

أحبه بين قوالب الأدب ، ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا شكلا من أشكال الأدب ؟.. لها كيان مستقل منسق كالقصيدة والصورة والهيكل الهندسى ، ذات جمال فى التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان باللذة الفنية لذاتها .. إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس ضرورة أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية !.. إن مآسى « سوفوكل » ، ودرامات « كاليداسا الهندى » و « فاوست » تأليف « جوتة » ، هى كلها أدب صراح ، تدخل على النفس ـــ بمجرد قراءتها ـــ لذة فنية كاملة ، بغير حاجة إلى مسرح وممثلين .. ولقد أعدت النظر أخيرا فى مأساة « هيبوليت » لـ « أيروبيد » ففضلتها على « فيدر » لـ « راسين » مع أن « راسين » راعى مقتضيات المسرح فى عهده ، وحذف « الكورس » .. فوجدت أنا الجمال فى هذا « الكورس » المحذوف ، ووددت لو أستطيع إدخال « الكورس » فى قصة أكتبها .. نعم « الكورس » الآن فى أواخر القرن العشرين ، سأعيد إليه اعتباره يوما .. إنما فى لون آخر ، وبروح أخرى مستمدة من « كتاب الموتى » وأوراق البردى(١) !.. نعم إن « الكورس » الخفى الذى أسمع همسه

(١) أرسل إلىّ « أتين دريوتون » ، مدير مصلحة الآثار المصرية سابقا ، بحثا خاصا بالمأساة فى مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة الأجزاء من حوار أبطال قصة مقدسة ، وكلام « الكورس » كما وجد حديثا فى بعض أوراق البردى . وقد أدهشنى جمال القطعة ، كما أنها قد كشفت للعالم « دريوتون » ولبعض زملائه من مشاهير علماء الآثار فى العالم عن منبع « المسرح الإغريقى القديم » ، إذ تبين أن هذه القطعة التمثيلية تشمل قسمين : قسم كلامى وقسم غنائى ، وأنها كانت تمثل فى المواسم الدينية . فالغناء إذن والكورس والرقص الدينى الذى عزا إليه « نيتشة » أصل التراجيديا الإغريقية إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو التراجيديا المصرية القديمة ..

الغريب ، وآهاته المتقطعة ، ونوحه المخنوق ، ثم هدوءه العميق ، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصار ، هو شيء بعيد عن المسرح ، قريب من المعبد ، عسير على الكلام تفسيره ، مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه !..

الثقافة الشرقية

إذا كنت قد أطلت الكلام فى روح « مصر » وتراث « مصر » فما ذلك عن رغبة فى حبس تفكيرنا فى حدود قومية ضيقة ، إنما أنا أرمى إلى غاية أبعد وأرحب .. إنى أريد دعم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها ، لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى لن يأتى إلا إذا عكف كل بلد من بلاد الشرق فى أول الأمر على نفسه ، ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ، وقدم إلى الإنسانية باسم : « الثقافة الشرقية » !..

على أن الذى يدعو إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين الشرقيين أنفسهم يشكون ويشككون فى حقيقة وجود « الثقافة الشرقية » . أولئك هم الذين قد بهرتهم انتصارات « الثقافة الغربية » المسيطرة الآن على العالم ، فأعمتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجدتهم يسبحون بمجدها ، ويفركون أعينهم التى لا ترى شيئا غير هذا النور الكثير !..

ذلك هو العمى ، والعقم ، والكسل . كذلك لا أقر تلك الفئة الأخرى من الشرقيين ، الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية يصعرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نعرة مضحكة وفخر كاذب !.. وذلك أيضا هو العمى ، والعقم ، والكسل !.. إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض الشرقيين إلى

العمل ، فيبدءون أولا بالجرى واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية .. تلك الثقافة التى أضافت اليوم كثيرا على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى !..

فثقافة الغرب ــ خصوصا فى العصر الحديث ــ لا تهمل شيئا أنتجه العقل البشرى فى أى عصر من العصور ، وفى أى بقعة من البقاع ، فالأوربيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية « شوبنهور » و « نيتشه » ، وحتى من الثقافة العربية والشعر العربى « جوتة » و « هاينى » . ولكنهم طبعوه بطابع فنهم وتفكيرهم ، ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين فالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حد معلوم ، فالأوربيون دائما يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصبوه فى قالبهم !..

فأوروبا إذن على ثروتها وغناها الثقافى اليوم لم يخطر ببالها قط أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى !.. إن الفكر البشرى ليس له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص ، والطبيعة الخاصة التى تكيف تلك الثروة المباحة التى تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة !..

إن الحضارة الأوربية فى الحقيقة لم تخلق بيديها خلقا كل هذه القوالب المعروفة فى آدابها وفنونها ، ولا كل هذه النظريات الشائعة فى فلسفتها وعلمها ، فإن كثيرا من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق فى حالته الأولية ، ولكن الأوربيين زادوا عليه ، وأضافوا إليه ، وأخرجوه ممهورا بإمضائهم ، ومطليا بشخصيتهم !.. وهذا فى الواقع عمل كل حضارة من الحضارات !.. ولا نستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها فى عصورها الزاهرة ، فما هى إلا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة ، صبها الإسلام فى قالبه ، وجعل منها لونا خاصا .

فالثقافة الشرقية إذن ، لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوربا ،

ولا أن تغمض عينها عن هذه الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا إذن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد ، فنأخذ كل شيء ، ونهضم كل شيء ، ثم نعرج على روحنا القديم ، كل في بلده ، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة : إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم الفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكرى ونهمه الذهنى لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرقى ، إذ لابد أن تكون معوله قد ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعة لا تكشفها غير طبيعة الشرقى وغرائزه ، وتجاريب حكمته المتراكمة فى أعماق نفسه ، على مدى آلاف السنين !..

فإذا تم لنا ذلك ، فإننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص ، وعلى نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع الدول الشمالية فى أوربا عن طبائع الدول الجنوبية ، فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان ، هما الثقافة اللاتينية ، والثقافة الأنجلو سكسونية ، ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان فى الطابع والمزاج والروح ، فإذا كان فى مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة ، لا تختلف عنهما فى مبلغ ثروتها ومادتها ، وإنما تخالفهما فقط فى الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة ، عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب ، فكأنه يرى شيئا جديدا مستقلا ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، ـــ فإننا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، وأمكننا أن نساير الفكر البشرى فى طوره ، وأن نسهم بعملنا ومواهبنا فى بنائه العظيم ، وأن نظفر أخيرا باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ، ذلك الاحترام الذى تنظر به إحداهما إلى الأخرى ، ويسترد « الشرق » عندئذ اعتباره فى نظر « الغرب » !..

كتلة « الروح الشرقى »

سألنى سائل عن رأيى فى « الوحدة العربية » فأحلته على آرائى السابقة ، وقلت له : إنى لم أغير موقفى ، فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية ، ــ فإنى أحب أن نتذكر دائما أننا إزاء الغرب لنا صفة تجمعنا ، وينبغى أن نحافظ عليها : فأوربا اليوم عندما تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ما تسميه « الروح الأوربى » ، فأقامت من أجل ذلك المؤتمرات ، دعى إليها كبار مفكرى الأمم الأوربية ليدرءوا الأخطار التى تهدد هذا الروح الأوربى المريض !.. ونحن الشرقيين لنا ــ من غير شك كذلك ــ ما نستطيع أن نسميه « الروح الشرقى » !..

إن طابعنا الفكرى ، وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا وإحساسنا بالجمال الذهنى ، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة . أسلوبنا فى التعبير ، عن حقائق الأشياء ، ــ كل ذلك ينم عن عقلية خاصة ، وعبقرية مستقلة ، لا ينبغى أن تتحلل وتتزايل تحت طغيان موجة أقوى !.. فإذا نادينا بالوحدة العربية فإنما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرقى » أمام كتلة « الروح الغربى » !..

إحياء الثقافة العربية القديمة

سألتنى مجلة عربية عن هذه المسألة ، فقلت :

تسألوننى كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟ .. هل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها ؟.. إن الثقافات والحضارات لا تموت ، ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى !.. فالثقافة العربية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن الذى امتصت وهضمت ، فمادة الثقافة لا تنعدم ، ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة ، وتدخل فى تركيب حضارة جديدة ، فالقول بإحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة الإغريقية القديمة ، قول لا أستطيع أن أفهم له معنى .

فالحضارات إنما تقوم على الحضارات ، وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة : فلو فرضنا المستحيل ، وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة فماذا نجد فيها غير شيء أوَّلى إلى جانب ثقافة العصر الحاضر !..

أما إذا كان المقصود من كلمة الإحياء ، لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها ، إنما المقصود إحياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذى لفت الأنظار إلى الثقافة العربية القديمة فى عصرها فهذا شيء آخر ، وهذا أمر ممكن لو عملنا واجتهدنا فى سبيل إحداث نهضة ثقافية ، يشعر بهزتها العالم المتحضر !..

ووسائلنا فى هذا ، هضم كل ثقافة موجودة قديمة أو حديثة وإخراج

ثقافة جديدة تنم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية ، تستطيع أن تقف جنبا إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين : اللاتينية والأنجلو ساكسونية ..

أما الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة ، فإن الطريق إليها هو الطريق الذى اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة ، أعنى به : « القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » ، ولا يغنى التلخيص عن الترجمة ، فنحن بإزاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية !..

وكما أن عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوربا قام على حركة ترجمة المؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الشرقية الحديثة ، الهندية والفارسية والإغريقية ، كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة أمهات المؤلفات الأوربية المعتمدة فى الفروع المختلفة ، وهذه المؤلفات من السهل معرفتها ، فما من أمة متحضرة ، وما من لغة حية إلا اتحدت فى كتب خالدة معينة بالذات ، لابد أن تعرف فى لغتها وفى كل لغة حية ، ففى فرع الأدب مثلا لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة متحضرة ، لم تنقل إلى لغتها كل أعمال « هوميروس » و « سوفوكل » و « شيكسبير » و « موليير » و « جوتة » الخ .. وفى الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق بى المقام عن تعدادها هنا ، وهى على كل حال معروفة لكل مثقف ، ولكن المهم هو إجماع الرأى فى الشرق العربى الحديث على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة ..ولننفق فى هذا السبيل الأموال ، فإن ربحنا سيكون عظيما ، وسنشترى بهذا حياة لغتنا العربية ، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التى قد يسجلها التاريخ كنهضة للفكر الشرقى ، لا تقل فى أهميتها عن نهضة الفكر الغربى التى ختمت القرون الوسطى ..

أثر أوربا فى أدبنا لحديث

سألتنى كذلك مجلة شرقية أدبية عن مدى تأثير الأدب الأوربى فى أدبنا العربى الحديث ، فقلت :

إن الحضارة لا تبلغ أوجها ، حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها ، فتؤثر فى مجرى الأفكار فى كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة ، وتطبعها بروحها الخاص الذى جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية الخ ..

واليوم الحضارة القائمة هى الحضارة الأوربية ، ولعل الحضارة الأوربية أشد الحضارات نفوذا فى الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل هذا يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة فى تيسير سبل المواصلات مما لم يعهده العالم من قبل ، فالسفن البخارية والقطارات السريعة والطيارات والراديو والسينما ــ كلها وسائل عجيبة فعالة فى سرعة إذاعة الأفكار الأوربية ونشرها .. إن الكرة الأرضية اليوم ليست إلا برتقالة فى مخلب هذا النسر الأوروبى ، ولا مناص لأمة من الأمم ، أن تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة ، رضيت أو كرهت !..

لذلك كان من الطبيعى للشرق ــ ولا سيما أمم البحر الأبيض ــ أن تتأثر ــ إلى حد كبير ــ بالحضارة التى تهيمن اليوم ، لا على البحر الأبيض وحده ، بل على كل بحار الأرض !..

فالقول بأن الأدب العربى الحديث تأثر بالفكر الأوربى هو البديهة

بعينها ، وينبغى لهذا الأدب أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية ، إذا أراد أن يحيا ، وان ينتشر ، وأن يفهم ويعترف بـه فـى الأرض عامـة ، وفـى بـلاد هذه الحضارات المختلفـة ، وجـرى فـى شـرايينه الـدم الفارسـى والهنـدى والرومى !..

والقول بأن الأدب العربى الحديث كان أشد تأثرا بأوربا بعـد الحـرب هو أيضا قول يطابق طبيعـة الأشياء . فالاتصـال الوثيـق بـين الشـعوب ، واحتكاك الأفكار والمبادئ ، وتقدم المواصلات ـــ كـل هـذا حـدث بعـد الحرب ، وبتاثير الحرب على نحو فجائى قوى يشبه الطفرة !..

ولقد أدرك الأدب العربى من احتكاكه بأوربـا أن وسـائل التعبـير فـى الأدب قد تطورت ، وأن الكتاب علـى اختـلاف جنسـياتهم قـد تواصـوا على أن يُلبسوا أفكارهم ثيابا متشابهة فى أغلب الممالك المتحضرة ، كما ألبسـوا أبدانهـم ثيابـا متشـابهة ، هـى القبعـة والسـترة ، سـواء فـى ذلـك الإنجليزى والفرنسى والروسى والإيطالى .. الخ . فكان من الطبيعى أيضـا للأدب العربى الحديث أن يتأثر بهـذا اللبـاس الأدبـى الشـائع ، كمـا تـأثر الزى الشرقى إلى حد كبير بالزى الغربى .

على أن الزى أو اللباس شىء ، والروح أو الشخصية التى فـى جـوف هذا الزى واللباس شىء آخر !.. ومهما يكن اتحـاد الإنجليزى والإيطـالى والأسبانى والروسى فى شكل الزى ، فإن الدم الـذى يجـرى فـى شـرايين كل منهم مختلف كل الاختلاف !..

لذلك أحب أن أقـول لأدبـاء العربيـة الحديثـة : لا تخشـوا مطلقـا مـن إلبـاس أفكـاركم الأثـواب الأوربيـة ، علـى شـرط أن يكـون طـابع هـذه الأفكار وروحها شرقيا محضا ، وأن يحس القارئ الأوربـى إزاء أعمـالكم أنه أمام نفس غير نفسه ، وشخصية غير شخصيته ، وإن كان الرداء ليس غريبا عليه ، لأن الرداء ليس ملكا لأحد : إنه ملك الحضارة ، والحضـارة وليدة الحضارات التى سبقتها !..

الأدب العـربى
فى الماضى والحاضـر

اعتاد الباحثون فى الأدب العربـى أن ينظـروا دائمـا إلى المـاضى ، وأن يقصروا عليه كل جهودهـم ، وأن يخصـوه بكـل التفـاتهم ، زاعمـين أنـه لا أسلوب فى العربيـة إطلاقـا إلا أسـلوب « الجـاحظ » ، ولا نـثر عذبـا إلا عند « ابن المقفع » ، حتى أدى هذا الزعم إلى حبس النشـاط الذهنـى على أثار الماضى وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربى الذى لـن يعـود إنما كان فى الماضى !..

أثرت هذه العقائد فى تفكير الشرق العربى ، وكانت هى علة الجمـود العقلى الذى أصيب به الشرق على مدى أحقاب ، حتى شعر الناس كـأن باب الاجتهاد قد أغلق ، فما عادوا يسـمحون لمداركهـم أن تتـذوق غـير الأدب القديـم ، وإن لم يفهمـوا مراميـه ، ويشـعروا بملابسـات حياتـه ، ومـا عـادوا يسـمحون لأدبـاء جيلهـم أن يخرجـوا عـن دائـرة تقليـد هـذا القديم ، وإن أحسوا مـن أنفسـهم القـدرة علـى إبـداع مـا ينـاسـب روح العصر الذى يعيشون هم فيه !..

غير أن التحرر الفكرى الذى انطلقت نسماته أخيرا على ربوع الشرق قد عدَّل كثيرا من هذه النظـرات ، فنحـن اليـوم لانخشـى أن نبـدع تحـت وحى الحاضر إنتاجا يختلف عما أبـدع تحـت وحـى المـاضى ، ولا يخشـى الناس أن يتذوقوا ويعجبوا بنتاج الحاضر ، كمـا يفعلـون بنتـاج المـاضى ،

ولا نخشى أن نضع الماضى والحاضر فى ميزان المقارنة وميـدان البحـث .. نعم .. نحن اليوم قد تعلمنا أن نعتـبر الأدب العربـى شـجرة واحـدة ناميـة نستطيع أن ننقل عيوننا بين : جذعها وفرعها وأغصانها ، وأمسها ويومها وغدها !.. بل إننا لا نتحرج اليوم من الاعتقاد بـأن مستقبل هـذا الأدب قد يكون أينع وأزهر من ماضيـه ، على أن الجرأة فـى الحكـم مـا زالـت تعوزنا ..

أذكر يوما جاءنى فيه أستاذ من أسـاتذة الأزهـر ، فتحادثنـا قليـلا فـى الأدب العربى ، فقلت له : إن أساليبنا اليوم فى الكتابة خير مـن أسـاليب كتاب العرب الأقدمـين مـن بعـض الوجـوه !.. فنظـر إلىّ دهشـا ، كأنـه لا يصدق أذنه ، فأدركت أن قداسة القديـم مـا زالـت تنسـج علـى هـذا العقل الجامد خيوط العنكبوت !..

ولبثت وحدى أفكر فى الأمر ، وأسائل نفسى ، ما وجه العجب فـى هذا التفضيل ؟.. إنى مـن المعجبـين بفـن الكثـير مـن الأقدمـين ، أمثـال : « الجاحظ » و « ابن المقفع » . ولكنى مـع ذلـك لا أستطيع أن أقضـى بغير هـذا الحكـم !.. علـى أن مـن التعسـف أن تقـوم المقارنـة علـى هـذا النحو ، فنحن الآن فى عصر مختلف كل الاختلاف عن العصـور السـابقة .. حقا إن إدراكنا اليوم للفـن أوسـع ولا ريـب مـن إدراك « الجـاحظ » و « ابـن المقفـع » كمـا أن إدراك « إينشـتين » للعلـم أوسـع مـن إدراك « فيثاغورس » !.. هذا لا يمكن أن يقوم فيـه جـدال .. إنمـا الأمـر الـذى يصـح أن نجـادل فيـه هـو : أى الآداب ، وأى الكتـاب استطاع أن يمـلأ عصـره ، وأن يعبر عـن روح عصـره ، وأن يؤثـر فـى عصـره ؟.. إنهـم يقـارنون أحيانـا بـين « فولتير » وبـين « برناردشـو » !.. فـى رأيـى أن الأخير قد اكتملت لديه من الوسائل الفنية ما لم يتهيأ مثلـه لـلأول !.. إن «فولتير» لم يبلغ قط فى قصصه التمثيلى ما بلغته قصص « برناردشو » ، ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهز عصره هزا ، وأن يحدث فـى تفكـير

عصره تيارات قوية ، وأن يفرض وجـوده علـى العـروش والتيجـان ، وأن يلقى بذور الانقلابات المقبلة فى نفوس الشعوب ؟.. ثم سؤال آخر يجـوز فيه الجدل : أى الأدبين ، العربى القديم أو الحديث ، استطاع فـى جملتـه أن يقف إلى جانب الآداب الأخرى المعـاصرة : ليـؤدى معهـا رسـالته إلى البشرية ؟.. إن المقارنة بـين أدب الأمـس فـى ذاتـه وأدب اليـوم فـى ذاتـه يؤدى غالبا إلى ترجيع أدب اليوم .. إنما المقارنة يجب أن تكـون بـين أدب الأمس فى عصره وأدب اليوم فى عصـره .. وهنـا تختلـف النتيجـة بعـض الاختلاف !..

لا أحب مع ذلك أن أصـدر أحكامـا سـريعة .. فـإن الحكـم يقتضى أسبابا مطولـة .. وإن المقـام ليضيـق دون ذلـك !.. إنمـا أحـب فـى ختـام كلمتى أن ألفت نظر هـذا الجيـل إلى أن يـأخذوا الأدب العربـى الحديـث على سبيل الجد ، وأن يضعـوه موضـع الـدرس إلى جـانب الأدب القديـم سواء بسواء . وأن يكـثروا مـن المقارنـة بينهمـا إذا شـاءوا ، كمـا يقـارن الإنسان بين الزهرة والزهرة فى شجرة واحدة ، وبين الثمـرة والثمـرة فـى أعوام متعاقبة ، فإن فى ذلك تذكيرا لهم بأن الأدب العربـى كـائن حـى : يتطور ويتغير ، ويتلون ويتأثر باختلاف الفصول والعصور !..

كـرامة الفكــر

القوة الحقيقية للقلم هى أن يستطيع أن « يقول ما يريد ، وقتمـا يريـد أن يقـول !.. » ، والرجولـة الحقيقيـة هـى أن يبـذل المـرء دمـه ومالـه ، وراحته وهناءه ، ودعته واطمئنانه ، وأهله وعياله ، وكل أثير عنده وعزيز عليه ، فى سبيل شىء واحد : « الكرامة » ، والكرامـة الحقيقيـة هـى أن يضع الإنسان نفسه الأخير فى كفة ، وفكرته ورأيه فـى كفـة ، حتـى إذا ما أرادت الظروف وزن ما فـى الكفتـين رجحـت فى الحـال كفـة رأيـه وفكره !.. كل عظماء التاريخ كانوا كذلك ، بل إن مصر الفقـيرة اليـوم فى العظماء قد عرفت ذات يوم رجالا كثيرين من هذا الطراز !.. رجـال لم يترددوا فى تضحية كل شىء من أجل فكرة .. والنزول عن كل متـاع من أجل رأى .. بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيرا فى حياتها المعنويـة والفكرية .. بل إنى لا أبالغ إذا قلت إن الأمم لا تبنى ولا تقـوم إلا علـى أكتـاف هـؤلاء !.. وإن الخطـأ المخيـف هـو يـوم تخلـو أمـة مـن أمثـال هؤلاء !.. نعم وإنه ليخالجنى الآن شىء مـن القلـق : فنـاموس اليـوم هـو وطء الفكرة بالأقدام ركضا خلف الجاه الزائف والمال الزائل !..

لقد حق لنا جميعا أن نسأل هذ السؤال : هل يطول غضب اللّـه علينـا فلا يظفرنا بهؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يـردوا الاعتبـار إلى قيمـة الرأى . ويطهروا النفوس من درن المادة ، ويعيـدوا المثـل العليـا النبيلـة إلى مجدها القديم .. .

* * *

هذا قول قلته منذ أعوام ، وأقوله اليوم أيضا .. وأنا واثق أن فى مصر عددا كبيرا من العقلاء الذين يستطيعون تمحيص المسائل ، وبحث المشكلات ، وإبداء الرأى الذى ينفع البلاد .. ولكنهم يطوون الرأى فى الصدور ، أو يهمسون به فى الآذان .. ولا يعرضونه بجرأة ، أو ينادون به فى إيمان ، خشية أن يتعرضوا لهجوم ، أو يلحق مصالحهم ضرر موهوم .. هذا التنحى من الناضجين والأكفاء عن المشاركة فى توجيه الرأى العام ، هو الذى يوجد فى مجال الآراء حالة تشبه الحكم المطلق أو الدكتاتورى ، إذ تستبد فكرة واحدة بعقول الناس ، ويطغى رأى واحد على تفكير الجماهير .. فتؤمن دون مناقشة بالقول الغالب ، وتنساق دون وعى بالرأى الجارف .. فنحن ـ فى حقيقة الأمر ـ الذين نفرض بأنفسنا على أنفسنا الحكم المطلق !.. لا دستورنا ، ولا نظام الحكم لدينا .. نظامنا الديمقراطى لا يمنعنا من الحرية .. ولكننا نحن الذين ننزل عنها راضين ، لأننا لا نريد أن ندافع عنها أو ندفع عنها .. إننا نفضل دائما أن نقبل رأى غيرنا الذى لا نؤمن به ، على أن ندفع فى سبيل رأينا بعض الجهد أو بعض الغرم .. ما من نظام فى الوجود يكفل الحرية لإنسان ، يخشى أو يكسل أو يهمل فى إبداء رأيه الحر !..

* * *

إذا أردتم الحرية والكرامة الآدمية فافحصوا كل رأى بعقولكم . ولا تقبلوا جزافا وبغير تفكير آراء غيركم ، حتى ولو كان أصدق أصدقائكم !..

إن الكلب على مروءته محتقر .. لا لشىء إلا لأنه قبل بلا صعوبة أن يضع أصدقاؤه فى عنقه قيدا وإن كان من ذهب !..

من النيل إلى السين ـــ ١

قرأت رسالتك إليّ على وجه « الأهرام » ذلك الوسيط الصادق بينى وبينك ، والرسول الأمين بيننا وبين الناس ، نحمله ما شئنا وما شاءت أفئدتنا من آمال وأحلام ، بل هو ذلك الحمام الزاجل لهذا العصر ، نطلقه بين ضفتي نهرين ، ونافذتي قارتين !..

إنى أكتب إليك الآن هذا الرد وأنا أطل على النيل ، وقد اتخذ لون الفضة فى هذا الشتاء ، وأتخيلك الآن واقفا تنظر إلى السين فى لونه الفيروزى الصافى ، ماشيا الهوينى تتصفح بين آن وآن الكتب القديمة المعروضة فوق حاجز النهر ، كما كان يفعل صديقك « أناتول فرانس » ..

نعم إنك تثير فى نفسى ذكريات .. رسالتك قد أعادتنى إلى ذلك الماضى يوم كنت أقطع كل صباح ذلك الطريق بين «كاتدرائية نوتردام » حتى جسر « دورسيه » فى الضفة الشرقية ، لا أترك كتابا حتى أتصفحه ، كان نصف تحصيل العلم فى أول أمرى من تصفح الكتب خلسة بغير مقابل ، ألتقط من كل كتاب فكرة أو فكرتين ، كالعصفور يلتقط من كل سنبلة حبة أو حبتين ، وأتحاشى أن ترانى عين البائع المسكين ، وهو أيضا فنان فى أغلب الأحيان ، يهمه اقتناء النادر من المجلدات ويزهو بعرضها أكثر مما يهمه أمر بيعها . ولقد أضحكتنى ذات مرة عبارة فى كتاب مشهور كنت أتصفحه ، فباغتتنى نظرة البائع فخجلت أن أطرح الكتاب بعد ذلك ، فاضطررت إلى شرائه بالمال الذى

ادخرته لغذائى ..

نعم لقد كنا هناك نجمع أعقاب العلم من كل مكان ، كما يجمع الغلمان فى مصر أعقاب « السجاير » .. إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران فصرنا نلتهم الأسفار التهاما ..

إن « باريس » عندنا لم تكن قط امرأة ، إنما كانت كتابا مفتوحا هو « سفر الحياة العليا » ..

أما هنا .. فالنيل جميل حقا ، لست أنكر ذلك ، وإنى لأرى الآن طرف « الجزيرة » الممتد فى الماء ، كأنه مقدم سفينة ، وأبصر فيها النخيل والأشجار خضراء داكنة ، كأنها ليل شعرى يخفى تحت ستره المحبين ، ولكنى لا أرى على ضفتى هذا النهر الرحيب العظيم غير قصور صغيرة متناثرة بيضاء وصفراء وخضراء ، كأنها بعض طيور الماء .. جمال طبيعى لا ريب فيه ، ولكنك لا ترى فيه بعد يد الحضارة النشطة ، فلا حواجز ممتدة ، ولا تماثيل منصوبة ، ولا كتب معروضة ..

أعترف لك أنى لا أقرأ فى مصر كثيرا ، وهل فى مصر بعد شىء يدفع إلى القراءة ؟.. إن مصر ليست كتابا مفتوحا ، إنما هى هيكل قديم مغلق يحوى كنوزا ، قد ضاع مفتاحه ، فعلينا قبل كل شىء أن نفتح بابه ونستخرج ما فيه . ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نائمون على أعتابه ، ولكن المصلحة كلها فى أن نذكر أنفسنا دائما ، بما فينا من كسل ونقص وخمول ، وأن نهب على أقدامنا للعمل .

وعلى ذكر العمل أريد أن أسألك سؤالا :

أما زال المقيم فى « باريس » يحس هذا الجو المعنوى المشبع بالنشاط الذى يغرى بالعمل المتواصل دون كلال ؟ لعل أهل مصر لا يعرفون هذا الجو ، وإنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف » ، هذا

الجو الذى ينتشر فى كل مكان ، فى القهوة حيث ترى الجالسين يكتبون ويقرءون أو يتحدثون حديثا خافتا سريعا كله عزم ، ثم يتناولون قهوتهم السوداء فى جرعة أو جرعتين ، ويخرجون قافزين إلى « الأتوبيس » أو هابطين إلى « المترو » السفلى لينصرفوا إلى العمل ، فلا جلوس مستديما فى غير طائل ، كما نفعل فى مقاهينا نحملق بأبصارنا فى الرائحين والغادين ، ولا قهقهة عالية نصخب بها ونحن ننفخ دخان الشيشة ، ولا مناقشات مدوية فى العلاوة والترقية ، ولا صيحات للعربدة ، ولا ضوضاء بسبب النرد .

نعم .. أو ليست تلك كل حياة الملايين من المصريين فى أوقات فراغهم ، بعد عمل قليل لكسب اللقمة ؟ فهى بالقياس إلى ما تراه الآن حولك فى « باريس » لا يمكن أن تسمى حياة !.. فالحياة هى العمل واللهو ، ونحن لا نعرف حتى كيف نلهو ، لأننا لا نعرف كيف نعمل . ولعل مصيبة العاملين فى مصر — وهم ندرة — أنهم لا يعرفون أين ولا كيف يلهون ، بعد نهار شاق ممتلئ بالإنتاج ، فلا أوبريت فنية مصرية ، ولا مسارح تلقى فيها شموس الهيئة الاجتماعية ، ولا « صالونات » لنساء عظيمات تتقابل فيها أساطين البلاد ، ولا أندية ليلية راقية يعرض فيها ظرفاء الأدب والشعر والفن كلماتهم اللامعة ، ونكاتهم البارعة ، وأخبارهم ونوادرهم وأغانيهم .. لا شىء فى ليالينا المصرية يمكن أن ينم عن الروح المصرى والذوق المصرى ، بينما كل شىء فى الليالى الباريسية يدل على الروح الباريسى والذوق الباريسى .

إن الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدب بعد فى « وادى النيل » إنما تلك الحياة الصغرى التى لا تخرج عن شئون الأكل والشرب والمتعة الوضيعة هى وحدها المعروفة الآن ..

وبعد ، فإنى أرجو لك إقامة طيبة فى محيط تلك الحيـاة الحقيقيـة التـى أنت فيها الساعة ، وأرجو منك أن تحرص على كل دقيقة مـن دقائقهـا ، وأن تروى ظمأك بحسنها العلوى ، وتشبع نفسك بجمالها الروحى ؟..

وهنيئا لك ؟!

من رسالة إلى « أحمد الصاوى محمد » فى عام ١٩٣٧م .

من النيل إلى السين ــ ٢

جاء فى آخر رسالتك الماضية ذكر للأكل والشرب ، وقلت بحق إننا حتى فى هذا أيضا لم نبلغ شأن الأمم المتمدينة .. صدقت واللّه ، صدقت !.. إن كل شىء فى الحضارة موضوع تفنن وابتكار .. إن الرجل المتحضر هو الذى يعرف كيف يعمل ، وكيف يأكل ، وكيف يلهو !.. وما من أدب من الآداب العريقة إلا وفيه فصل عن الطعام ، فإذا فتحت « العقد الفريد » لابن عبد ربه أو « مقامات بديع الزمان » وجدت أوصافا تسيل اللعاب فى ألوان « السكباجة » و « الطهباجة » ، وإذا راجعت كتاب « بول ريبو » الأديب الفرنسى عن فن الأكل لوجدت فيه هذه العبارة الظريفة : « إن استكشاف لون جديد من ألوان الطعام لأنفع للإنسانية من استكشاف نجم جديد من نجوم السماء !.. » وإنك لتعلم فيما تعلم عنى أنى أحب الجيد من الطعام ، وأنى كثير التبديل والتغيير للطهاة ، فبحقى عندك إلا أكلت لى وباسمى ثلاثة أزواج من « المحار البرتغالى الأخضر » وطبقا من « الكاسوليه » التولوزيه التى أحبها ؟.. ولا أوصيك بحساء البصل فأنت أدرى منى أين تجده وتطلبه ؟.. وبعد !.. أما وقد فرغنا من أمر بطوننا فلنتجه إلى شئون عقولنا .. لقد راقنى وصفك للإضراب العام فى « باريس » ، وقولك إن تعطيل طرق المواصلات من « ترام » و « مترو » و « أتوبيس » فى بلد كباريس لم يعطل لحظة نشاط الباريسيين !.. هذا صحيح !.. إن ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر لحظة فى حياتها العقلية

والذهنية والاجتماعية ، فقد كان رجال العلم فى معاملهم وقاعات بحثهم هم هم : ينظرون إلى عالمهم اللانهائى من خلال « المكرسكوب » و « التلسكوب » ، ورجال الأدب هم هم : يستقبلون تحت قباب المجامع الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذى سيبقى على التاريخ ، ورجال الفن هم هم : يعرضون نتائج ابتكارهم ، واتجاهات مذاهبهم فى المعارض والصالونات .. والمسارح هى هى : تعج بالمشاهدين والناقدين .. وأندية الليل هى هى : بظرفها وشعرها وخفة روحها !..

أما فى مصر ، فكل هذا غير معروف ، فإنه ليكفى أن تنشر جريدة فى صفحتها الأولى أو التاسعة خبرا سياسيا هاما ، حتى تجد مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها لا تتكلم إلا فى هذا الخبر ، ولا تقلق إلا بترديد هذا الخبر ، السبب فى ذلك بسيط ، إن حياتنا فوضى ، أو هى حياة أولية « سديمية » لم تتكون فيها عوالم منظمة متألقة يعيش فيها الناس .. فإنك لا تستطيع مثلا أن تقول فى مصر « عالم الأدب» و « عالم العلم» و « عالم الرياضة » و « عالم السياسة » الخ الخ ، بالمعنى المفهوم لهذه العوالم فى أوربا ، فإن كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيما يؤهلها لحصر جهودها المنتجة فى منطقة معينة بالذات !.. وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التى فى يدها القوة واللقمة وهم رجال السياسة ، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ، ومحا من الوجود تلك العوالم الأخرى النافعة التى كان ينبغى ألا تقل عنها إشراقا ، فنحن إذن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى ، ومجتمعنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائى . فإلى أن يهتم الناس بأشياء أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة ــ وكل شىء فى الوجود هو فى الحقيقة أرقى من السياسة ــ إلى أن يعنى الناس بشئون الفكر ولذات الفكر ، وينفقون فى الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات بعض اللحظات .. إلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن فى

مجتمعنا عين الاحترام والاهتمام الذى يقـابل بـه رجـل السياسـة .. إلى أن تكـون للمظـاهرات الأدبيـة والعلميـة عـين الهـزة والضجـة التـى تكـون للمظاهرات السياسية .. إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة مـن السياسـيين المحترفين يصيحون ويصخبون فى نواديهـم ، وننصـرف نحـن المفكريـن إلى نوادينا ومجامعنا الفكرية ، ونحـن الريـاضيين إلى نوادينـا الرياضيـة ، ونحـن الماليين والاقتصاديين إلى نوادينا المالية والتجاريـة .. إلى أن تتعـدد نواحـى النشاط فى البلد ، ويذهب هذا النـوم والخمـول الـذى شمـل كـل جـانب إلا ذلك الجانب العقيم : السياسة .. إلى أن يحدث كل هذا فلا أمـل فـى المجتمع المصرى ، فلندع اللّـه أن يتـدارك هـذه الأمـة برحمتـه ، فهـو مغـير الأحوال ، والسلام !!..

من رسالة إلى « أحمد الصاوى محمد » عام ١٩٣٧م .

من مشكلات الفكر

أثارت صحيفة إنجليزية مشكلة ليست يسيرة الحل .. وهى فيما يبدو من الظواهر الشائعة اليوم فى كثير من الأمم .. تلك هى مشكلة الأدباء والمؤلفين وموارد رزقهم .. فلقد كادت تنقرض الآن أسطورة المؤلف الثرى .. ذلك أن أزمة الورق فى إنجلترا ، ومشكلات النقد ، وقيود الاستيراد الدولية ، ــ أنقصت إلى حد كبير عدد المطبوع من الكتب ، فلم يعد ربحه يكفى لإطعام المؤلف .. وليس كل مؤلف يستطيع فوق ذلك أن يضمن لكتابه النشر ، حتى وإن كان من المجيدين أو المعروفين ، فإن للناشرين حصة محدودة من الورق ، وعلى كل منهم أن يعد قائمة بمؤلفيه ، ويعين لكل نوبته فى أسبقية الطبع .. أمام كل هذه العقبات : ماذا يصنع المؤلف لينتج ويعيش ؟.. استطلعت الصحيفة آراء طائفة من الأدباء .. فأجمعوا رأيهم على أن تأليف الكتب لم يعد يضمن رزقا لمؤلف ، وأن على الأديب أن يتخذ له حرفة من الحرف ، أو وظيفة من الوظائف ، أو عملا بإحدى الصحف !..

إنها حقا لمحنة أن يعجز الفكر الصرف عن أن يكفل لصاحبه حياة مستقلة فى هذا العصر !.. ولكن ما هو الحل ؟..

فى فرنسا تكفلت الحكومة عقب الحرب الأخيرة بشراء بعض مقالات الأدباء ، لتقيهم شرّ الموت جوعا ، وجعلت توزع هذه المقالات على الصحف ، داخل بلادها وخارجها ، قاصدة من وراء ذلك إلى نشر الدعاية للثقافة الفرنسية .. ولكن هذا ليس بالحل الطبيعى الذى تلجأ إليه

حكومة فى كل حين !..

أما فى بلادنا فالمشكلة قائمة على أشدها .. فالحكومة أبعد من أن تعنى بتأليف أو مؤلفين .. ومع أن عدد الأدباء المنقطعين لحرفة القلم قليل .. إلا أنهم قد تُركوا لمصايرهم يدبرون لأنفسهم أمر معاشهم .. ولما كانوا لا يحسنون عملا غير حمل القلم فقد احترفوا الكتابة على كره منهم !..

ترى ماذا يحدث لو التفتت إليهم الحكومة قائلة : « يجب أن تنقطعوا للفكر الصرف كل الانقطاع .. أما معاشكم فإنى سأدبره لكم .. » .

إذا فعلت الحكومة ذلك ثم اقتضت من الأدباء بعدئذ الثمن ، وأرادت تسخيرهم فى خدمة أهدافها السياسية أو أهوائها الحزبية ، فإن الحال تنقلب شرا مما كانت .. ولخير للأديب أن يموت جوعا من أن يبيع روحه لشيطان السلطان .. ولكن .. لنفرض أنه وجدت الحكومة التى تترفع عن هذا الصغار !.. ولنفرض – أكثر من ذلك – أيضا أنها تورعت عن التدخل فى إنتاج الأديب ، وانها جردت من سلطانها حارسا يحمى حرية الأديب فى التفكير والإبداع ..

لنفرض أن هذه الحكومة أو « العنقاء » يمكن أن توجد .. فماذا يكون الحال ؟..

ما من شك أن الأدباء سيتوفرون على الفكر الخالص وحده .. وسيكرسون جهودهم لخدمة الفن الرفيع ، بعيدا عن كل اعتبار .. وسيحلقون فى أدبهم وتفكيرهم تحليقا قل من يتابعهم فيه ، أو يلاحقهم فى التصعيد إلى قممه !..

إنه الفكر المستكفى بذاته ، قد امتطى صهوة السحب .. ليشرف من سمائه على جموع الناس !..

* * *

على هذا الوضع يخيل إلينا أن المسألة قد حلت .. ولكن صوتا من أعماق الجموع يرتفع قائلا : أنسيتم أنكم في عصر « الجماعات » البشرية المتيقظة ، التي أصبحت لها حقوق في كل زاد مادى ومعنوى ؟!؟.. بأى حق تحبسون عنها هؤلاء الأدباء في تلك الأقفاص المرتفعة ؟.. وتدثرونهم بهذه السحب القصية ؟!.. لماذا تحرموننا — نحن الشعب هذا الاتصال المباشر بهذه العقول الممتازة ؟!.. نحن — الناس في جموعها وألوفها — لاتصل أيدينا الفارغة الفقيرة إلى الصحف السيارة والمجلات المنتشرة .. أتريدون أن نقرأ فيها الفارغ الفقير من الكلام في كل الأحوال ؟. أليس من حقنا أن نلقى فيها أديبا من هؤلاء الأدباء الذين تريدون أن تجعلوهم وقفا على الخاصة ؟!.. إلى متى — هذه النظرة الأرستقراطية القديمة إلينا ؟.. إن العالم قد تغير .. وإن الأديب الذى ينكرنا ، ويأبى أن ينفعنا ، وأن يمد يده إلينا — ولو في أعماق طيننا ، وفى حمأة وحلنا ، وفى وصمة جهلنا — لهو أديب مترف بغيض ، بل هو كمدعى النبوة المترفع الكاذب الذى يخشى على ثيابه أن تدنسها أوساخ الطريق .. وعلى سمعته أن تلطخها خطايا الفجرة .. فلا يهبط من مقصورته العالية لينتشل من الجماهير ولو نسمة واحدة صالحة للهداية أو الرقى !..

* * *

بين هاتين الصورتين ماذا يصنع الأديب ؟.. وإلى أيهما يتجه ؟.. إلى الفن الخالص الذى يناديه من أعلى .. أو إلى الجموع العطشى التي تناديه من أسفل ؟!.. أو يظل معلقا كالقرد .. يد فى العلو ويد فى السفل ؟!..

مشكلة أخرى لابد لها من حل !..

بين جيلين

جاءني ذات صباح أديب شاب .. وقدم إلىّ رواية مصرية ألفها ونشرها في كتاب .. وهو مزهو فخور منتعش ، كشجرة آتت ثمارها .. فحملت كتابه في يدى بعناية وحنان ، أقرأ العنوان .. ثم شرعت أقلب بعض الصفحات ، وإذا حركة بالباب تبلغ أذنى ، فرفعت عينى فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس ، مشرقة الوجه ، وضاحة الجبين ، — تستأذن وتدخل وتجلس ، قبل أن تمنحنى وقتا لرد أو جواب ، ولم تنتظر منى كلاما ، فقد انطلقت هى تقول بلسان فصيح وجنان ثابت :

إنى قارئة ساخطة ثائرة .. جئت أوجه إليك سؤالا واحدا ، ماذا تصنع الآن ؟.. مضى العام تلو العام ، دون أن يظهر لك كتاب فى السوق : أهى الصحافة التى شغلتك ؟..

وأشارت بيدها إلى جو الحياة الصاخبة الذى يحيط بمكتبى !..

* * *

والتفت إليها لأجيب .. ولكن الشاب سبقنى صائحا بحماسة : أمن الضرورى أن يؤلف هو وينشر ؟.. أليس فى الدنيا كتب أخرى جديرة بالقراءة تظهر فى كل حين ؟!..

فنظرت إليه الفتاة دهشة ، ثم نقلت بصرها إلىّ كالمتسائلة !. فوجدتنى أهز رأسى موافقا مصادقا مؤمنا .. فعادت إلى الشاب قائلة :

ـ إنى أسأله هو عما يشغلة !..

فقال الشاب بقوة وتدفق :

ـ ما لنا وماله !.. فليشغل نفسه بأى شيء خيرا من أن يملأ مائتين أو ثلاثمائة صفحة يجعلها قصة يتقدم بها فى كل موسم .. حتى يقال إنه دائب على الإنتاج .. ما كان أسهل عليه أن يكرر نفسه !.. ويخرج حلقات لا تنتهى على نمط « عودة الروح » أو « عصفور من الشرق » أو « الرباط المقدس » أو « المسرحيات الاجتماعية والذهنية » أو يستغل على الأقل كتب التاريخ ، يستخرج منها قصصا لا تنفد ، وينشر فى كل موسم ما تشائين ويشاء أمثالك لمجرد النشر أو الكسب أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط !..

ـ أتراه يستنكف من فعل ذلك .. أو لا يرى له جدوى ؟!..

ـ اطرحى عليه هذا السؤال .. ها هو ذا أمامك ..

فالتفتت إلىّ الفتاة لحظة ، ثم انصرفت عنى يائسة إلى الشاب :

ـ إنه يهز رأسه دائما .. أجب أنت .

ـ ولماذا أجيب عنه .. ولماذا تصرين على الكلام فى شأنه ؟.. إذا أردت فإنى أحدثك عن نفسى . فأنا ولا شك ملم بكل تفاصيلها ، وأنا أديب ومؤلف وروائى و ..

ـ عجبا !. ولكننى لم أجئ لأتحدث إليك !.

ـ هذا خطأ منك أيتها الآنسة ! لو كنت مكانك لسألت تواً عمن يكون هذا الشاب الموهوب الذى تدخل فى الحديث بهذه الشجاعة ، وطلبت أن يقدم إلىّ ، وأن يحدثنى ، عن كتابه الذى ظهر حديثا ، لأطمئن على أن الأدب بخير .. سواء ألف صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف ، ونشر كتبا أو لم ينشر .. عاش أو لم يعش ..

ـ إنها حقا لشجاعة ، بل جراءة !.. إنكَ تتدخل على نحو !..

ـ لا تنظرى إلى صاحب الحجرة .. إنه لن ينقذك منى ، ولن يتكلم

.. ولن يبت برأى .. إنه كما ترين يجيبك دائما بهز رأسه .

ــ هذا صحيح ، وأنت ، هل تعرفه منذ زمن طويل ؟

ــ أعرفه منذ خمس عشرة سنة ، كنت يومئذ فى الخامسة عشرة ، وكان أهلى فى البيت يتحدثون عن « عودة الروح » ولكننى لم أحفل بقراءتها شخصيا إلا عندما بلغت العشرين .. فى ذلك الوقت نشأت مع كثيرين من أقرانى فى الجامعة وشباب جيلى ، وشببت معهم وهم يلغطون ويتناقشون فى الرواية المصرية الطويلة التى شق طريقها .. ويقسمون بحماسة الصبا أنهم سوف يمضون فى هذه السبيل ، ويخرجون يوما روايات مثلها وخيرا منها عن حياتنا القومية ، وقد بر بعضهم بوعده ، ونشر قصصا على جانب كبير من الطرافة والاتقان !.. وأستطيع أن أؤكد لك ــ أيتها الآنسة ــ أنى أحد هؤلاء النابغين !.. أقولها بكل صراحة ، وبكل تواضع !..

ــ إنى متأكدة من صراحتك وتواضعك .. وعلى الرغم من كل شىء ، ثق أنى بدأت أهتم بأعمالك .. ولكن ، ألا تسمح لى قبل ذلك أن أعرف شيئا قليلا عن الأمر الذى جئت اليوم من أجله ؟!..

ــ تفضلى !.. ماذا تريدين أن تعرفى ؟..

ــ السؤال بالطبع ليس موجها إليك .. أردت أن أعرف كيف يترك فنه العالى ، لينزل إلى الكتابة فى الصحف ..

ــ واللّه لقد حيرتموه !.. إذا ارتفع بفنه قلتم كيف لا يهبط إلى الناس : يشعر بشعورهم ، ويدرس أحوالهم ويعرف أنباءهم ، ويعرض شكاواهم ، ويدافع عن حقوقهم !.. فإذا فعل عدتم فقلتم : أين العزلة التى يكتب فيها لطائفة من الخاصة .. نصيحتى لك أيتها الآنسة ألا تلقى هذه الأسئلة السخيفة !.. لا تؤاخذينى !.. إن من يكتب لمئات الألوف ، ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ، ويرتفع بهم بعض الارتفاع ، لهو رجل يؤدى خدمة عامة !..

ـ وفنه ؟!..

ـ ما من فنان يستطيع أن يهمل فنه وإن أراد !.. ولعلك تخلطين بين الفن وبين إنتاج الكتب فى كل موسم !.. تخلطين بين الفنان والمعلم ، بين المنتج والتاجر !.. ماذا تسمين ذلك الذى يسكت عندما ينبغى له السكوت .. عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة ، يدرس خلالها نفسه من جديد ، ويزن تأملاته ، ويختزن تجاريبه ، ويراقب أحوال الناس ، وتطورات المجتمع .. ويراجع أعماله القديمة ، ويبحث ـ صامتا صابرا ـ عن طرائق للتعبير الفنى جديدة !.. إن النشر يا آنستى سهل ، ولكن الصعب هو البحث الطويل فى الظلام !.. ولعلك تجدينه الساعة مشغولا بالبحث عن نوع من الفن ، لا علاقة له بكل ما عالج من قبل .. « الفن طويل والحياة قصيرة » !.. تلك كلمة « جوتة » المشهورة !..

إن من يريد أن يمسك بتلابيب « الفن » ، فى حياته المحدودة .. يجب أن يقفز فوق كل تكرار لا غناء فيه !.. وأن يركض خلف سرابه فى كل طريق حتى القبر !..

* * *

وسكت الفتى ، ونظر إلىّ كأنه يساءلنى : هل أصبت ؟.. فتلقى منى الجواب هزة من الرأس أيضا .. أما الفتاة فقد أكبرت كلام الشاب الأديب وقالت :

ـ اسمح لى أن أبدى إعجابى بفهمك للفن .. وأن أسألك عن كتابك !.. فإنى مشوقة إلى قراءاته .. فى أى المكتبات أجده ؟..

ـ آسف كل الأسف يا آنسة !.. إنى لم أجئ هنا إلا بنسخة واحدة .. ولكن إذا أذنت فإنى أرافقك الآن إلى أقرب مكتبة ، وأقدم لك نسخة ممضاة .. ألديك ما يبقيك هنا الساعة ؟! ..

ـ لا داعى لبقائى .. نستطيع أن نذهب توا !..

ونهضت فى الحال وحيتنى تحية سريعة ، وانصرفت .. ونهض الشاب لينصرف فى إثرها بعد أن حيانى هو الآخر تحيـة سـريعة ، ولم يكـد يبلـغ العتبة حتى بدا له رأى ، فعاد أدراجه إلىّ واقترب منى هامسا راجيا :

ــ المكتبات الآن مغلقـة .. أكـون شـاكرا لـو تفضلـت ، ورددت إلىّ هذه النسخة لأهديها إليها !.. أما أنت فسأحضر لك نسختك غدا .. إن المستقبل أولى من الماضى !..

فما تمالكت أن مددت يدى إليه بالنسخة .. وأنا أغمز له بعينى راضيا باسما :

ــ صدقت !.. وإنى لأراه مستقبلا مشرق الوجه وضاح الجبين !..

فى السياسة والاجتماع

« هستريا » السياسة

أتسمع هذه الضوضاء التى ارتفع صداها إلى أبراجنا العاجية ، فأفسدت علينا هدوءنا وتفكيرنا ؟ .. لعلك قائل معى : هى « هستريا السياسة » أصيب بها هذا البلد دفعة واحدة !.. نعم ، الأمر لا شك خطير ، ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا ، فيؤثر فى أعصابنا وإنتاجنا نحن المعتصمين فى أبراج الفكر الهادئ ، وإذا وصل بخار « السياسة » إلى تلك القمم الباردة فى أمة من الأمم فأنذر إذن بالويل ، وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به الداء !.. فما رأس الأمة فى حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون !.. وإنك لتذكر ما كان من أمر « جوته » شاعر الألمان يوم زلزلت الدنيا بثورة يوليو الفرنسية !.. فقد دخل عليه صديقه الأديب « أكرامان » يزوره ويتحدث إليه ، فبادره « جوته » صائحا :

ـ « لقد أرسل البركان حممه ، واشتعلت النار فى كل شىء !.. » .

فقال « أكرامان » :

ـ « نعم إنه لحدث جلل ، هذه الثورة الفرنسية !.. » .

فعجب « جوته » وقال ساخرا :

ـ « كلا ، لست أعنى تلك الثورة ، إنما أتكلم عن تلك المساجلة العلمية التى نشبت فى موضوع « أصل الأنواع » بين العالمين « كوفيه » و « جعفرى سانت هيلير » تحت قبة « المجمع العلمى » !..

هنا أيها الصديق كل مجد « ألمانيا » فى الماضى ، بل كل مجد البشرية العليا !.. إن رعد الثورة ، وصياح الثوار لم يبلغ صداه أبراج العلم وقمم

الفكر !.. هذا الـرأس قـد ظـل ثابتـا لم تلعـب بـه « السياسـة » ، هادئـا لا يتأثر بإنقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع فى ميدان العلم والفكـر !.. ولقد انطفأ فعلا لهب الثورة الفرنسية ، ومضـى بدخانـه ورمـاد أشـلائه ، وبقى رأس « جوته » شامخا مضيئـا فـى عليائـه ، رمـزا للفكـر الإنسـانى الخالد !..

ينبغى أن نتدبر قليلا هذا البـلاء خوفـا علـى رءوسـنا أن يصيبهـا دوار « السياسة » فلا تبصر شـيئا فـى هـذا الضبـاب الشـامل ، وخشـية علـى الناس أن يتمكن منهـم الـداء ، فيذهـب بألبـابهم ، ويدفعهـم إلى التقـاتل والتناحر ، ويغرى الشبان منهم باقتراف الإثم وارتكاب الجريمة ، ويشـغل المنتجين منهم عـن الإنتـاج ، ويصـرف الأمـة قاطبـة عـن العمـل المفيـد ، ويوقف تلك النهضة التى كادت تعود إلى هجعة مضطربـة ، تحت أقـدام كابوس !..

إنا لا نستطيع أن نصيح فى النـاس ، وإذا صحنـا مـن هـذا العلـو فمـا صيحاتنا إلا همسات تمر فوق بحر من العراك والصيـاح والهتـاف تعـج بـه وتصخب أمة بأسرها ، هل لك فى أن تنادى معى من برجلك :

أيها الناس : اتركوا السياسـة للساسـة ، فإنهم ليسـوا فـى حاجـة إلى حناجركم ، ولكنهم فى حاجة إلى هدوئكم وانصرافكم إلى أعمالكم !..

من مساجلات مع « منصور فهمى » ١٩٣٧م .

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع !.. إن تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم !.. ولعل الأولى نتيجة الثانية فقد فهمت الديموقراطية فهما غريبا ، فهى اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول !.. ولقد تزاحم الناس فعلا على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت تهدم الأخلاق وتحطم المثل العليا !.. إنك لن تجد اليوم كثيرا من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين .. لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب فى صوت جهير وخلوص ضميرا..

لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يجلس فيه العالم قابعا فى أطماره ، يلقى الحكمة على سامعيه ويجرى عليه الخير ليعيش ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيهات ، فقد كفاها أن عرفت ثقل القبلات ، يضعها عليها رجال الحكم والسلطان ، مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الإنسانى ، والقاضى من عدله المنزه ورجل الفقه من فتاواه المجردة ، والأستاذ من بين تلاميذه ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده !.. الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنيهات أن نلعب بلب أكثر هؤلاء ، وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى ، وأن نغريهم بمناصبَ لا صلة لها بعملهم ولا بفضلهم ، وهذا ما يحدث كل يوم ، فقد ماتت المثل العليا !.. وهذا ما أفقر دور العلم والفكر ، ودور الدين والزهد ، ودور العدل والفقه ، ودور الفن والأدب من أربابها ، وزج بهم إلى التطاحن والتسابق فى

ميادين المادة والوصول !..

هنا أيها الصديق كل الخطر ، فإن تفشى المادية والوصولية في جسم الأمة لا يخيفني بقدر ما يخيفني دنو الدواء من رأس الأمة ، أى خاصتها وقادة الرأى فيها !.. إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج ، ولكن كيف ؟.. ما هى تلك العملية الجراحية التى تخرج من هذا الرأس صديد المادية ، وتطهره بماء القناعة والروحانية ؟.. كيف نستطيع أن نذكر الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم — وخلفها أساطيل البحر والجو — مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندى خلفة عنزة ؟.. ثق أن في الإمكان صنع الأعاجيب ، لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم بـ « الأخلاق » ، وصدق تقديرهم « للمثل العليا » !.. ينبغى أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذى لا يشترى بمال ولا بجاه . نعم إن من ملك قلبا حارا ولسانا حرا ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع ، — فهو وحده الذى يستطيع أن يسود العالم !.. ألاترى معى أن « المثل العليا » المحطمة فى حاجة إلى أن توضع من جديد شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة !!..

من مساجلات مع « منصور فهمى » .

الإيمان بالمثل العليا

تسألنى عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق ، وتقوية الإيمان بالمثل العليا .. هنا كل المسألة .. ولست أدرى من يبدأ بالعمل ومن يعطينى المثل ؟.. أهم الأفراد أم هم أصحاب السلطان ؟.. ولقد ذكرت « عمر بن الخطاب » وزهده فى متع الدنيا ، وفى يده مفاتيح الكنوز وتحت قدميه دول وعروش !.. هذا حقيقة خير مثل لصاحب السلطان ، ينبغى أنَ يضرب للأفراد والمحكومين كى يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة الحقيقية لا تعرف الحرص على المادة ، ولكن الدرس والمثل قد يأتى أيضا من الفرد المحكوم !..

وما إخالك تنسى موقف ذلك العالم الفاضل « الشيخ الطويل » يوم دعاه « الخديو » فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية الممزقة التى عليه ، فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدى عباءة جديدة صاح فيهم : أهو يريد رؤيتى أنا أم رؤية العباءة ؟ إن أراد العباءة فها هى ذى احملوها إليه ، وإن أرادنى أنا فإنى أذهب إليه كما أنا . وما إخالك تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم « نابليون » الظافر وأراد أن يزين صدورهم بالنياشين ، فراعه أن رأى أيديهم الغاضبة قد انتزعت نياشينه ، وألقت بها إلى الأرض فى حضرته ، فلم يغضب وابتسم ، وعلم أنه أمام رجال يحترمون أنفسهم ! .. وهو أول من يدرك أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجل يحترم نفسه !.. فأنت ترى معى أن الدرس الخلقى قد يأتى من صاحب السلطان ، كما يأتى من الفرد المحكوم !.. المهم فى

الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة ، فى أى طبقة وأى بيئة ، وأى زمان !..

وأعود فأجيبك على سؤالك الآن ، فى غير تردد :

إن أقرب السُّبل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل !.. هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حتى نراه بأعيننا ، ونسمع صوته بآذاننا ، ونلمسه بأيدينا ، ونتبعه بأفئدتنا ! ولكن هل كل مجتمع قدير على إخراج مثل هؤلاء الرجال ، أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟..

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٧م) .

داء الكلام

هنالك أمر آخر يدعو إلى قلقى على مستقبل نهضتنا .. إن أول شىء يحزننى حقيقة ــ وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل ــ هو أن « الكلام » له عندنا دائما كل القيمة ، أما « العمل » فلا يسأل أحد عنه !.. إن « الشكل » هو الذى يعنينا ويخلب منا اللب .. أما « الجوهر » فلا نكاد نلتفت إليه !.. إن « الوسيلة » تنقلب عندنا دائما إلى « غاية » .. لعلك قرأت فى كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » كيف يهتم رجال الضبط أحيانا بتنميق تحرير المحاضر ، وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلى على الجناة .. ولعلك رأيت فى محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عاما قد مضت على مصر ، ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال !.. ولقد نبذنا كل شىء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية ، جلسنا نتقاذف أقوالا ونردد كلمات .. إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن ينقذنا من هذا التكاسل والقعود ، فقال :

« هاكم الاستقلال !.. » .

فقلنا :

« هات » !.. ثم أخذنا هذه الكلمة ، وجلسنا كما كنا ، لا ندرى ماذا نصنع بها ؟.. نحن نقع دائما فى الحيرة كلما تركتنا الظروف وجها لوجه أمام العمل المنتج ، وكأننا لا نجد فرجا ولا مخرجا إلا فى الصياح والجدل !.. إنى لأخشى أن تظهر فى الأفق كلمات أخرى ، أو أن نخترع

موضوعا جديدا للتصايح ، يشغلنا من جديد عن المضى الجدى فى حركة النهوض المنشود !..

آه .. العلة كلها ها هنا .. إن روح العمل وعبقرية الخلق ثمار لم تلق بعد بذورها فى أرض مصر !.. حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل ، الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شىء فى الوجود !.. إنك ولا ريب تذكر « نابليون » فى غزوته لروسيا ، وكيف خذله البرد والجليد ، غير أنى أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل عندما وجد نفسه محصورا فى تلك الأصقاع ، لا يدرى ماذا يفعل !.. أستغفر اللّه !.. إن الرجل العظيم يعرف دائما ماذا يصنع ، ولا يطيق مطلقا أن يقعد دون أن يخلق شيئا ، فهو لم ينفق وقته فى صياح ، ولم ينتظر الغد مستلقيا على ظهره ، ولكنه شمر فى الحال عن ساعديه للعمل ، وجعل وهو فى كربه وضيقه يفكر فى إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ، الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها ، وكان من بين تلك المنشآت مشروع « الكوميدى فرانسيز » ، إحدى منائر الثقافة الفرنسية فى العالم ، وكذلك فعل هذا الرجل فى « مصر » ، يوم حطم خصومه أسطوله وانقطعت صلته بوطنه ، فلم يضعف عزمه ، ولم تفتر روح العمل فيه وقال :

ـ لم لا أصنع فى « مصر » حضارة أخرى ؟..

وشرع من فوره يبنى دعائم المعاهد العلمية ، ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم وأسباب العمران !.. ولكن ، من المسئول عن موت روح العمل المنتج فى هذه الأمة ؟.. أهم رءوسها الذين عودوها سياسة الكلام ؟.. أم هى الأمة نفسها التى لا تحب ولا تحتمل بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟!..

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٧م) .

To: www.al-mostafa.com

البرنامـــج أولا

ما دمنا قد اتفقنا على أن « العمل » قد حان له أن يحل محل « الكلام » ، وما دمت يا صديقي قد طلبت إليّ أن أمضي في ذكر التفصيلات ، فإني أقول لك إن أول ما ينبغي عمله هو وضع « البرنامج » ، وقد ترد عليّ بأن « البرامج » هي أيضا مما يدخل في منطقة « الكلام » ، ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى في سبيل العمل لم نخطها بعد ؟.. إن كل النهضات التي قامت بها الحكومات الحديثة في بلادها ــ خصوصا بعد الحرب ــ قد تمت وفق منهج مرسوم ، وتحدد لتنفيذها زمن معلوم .. فقالوا :

هذا « نظام خمسي » وهذا « نظام عشري » تبعا لعدد السنوات التي قرر الأخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات ، فأين نحن من هذا ؟.. أتستطيع مثلا أن تقول لي : هل وضع نظام ثابت لمحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة كما فعلت العراق ، حتى نرتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة ؟.. أيمكنك أن تقول لي : هل هنالك مشروعات اقتصادية ، درسها الخبراء وقرروا لها زمنا تتم فيه ، وتخرج للبلاد في نهايته ، وسيلة جديدة من وسائل الإنتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان ، وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلة ؟.. أو أننا سنظل دائما كما نحن ، وكما كنا منذ أن أدخل الخديو « إسماعيل » في مصر

زراعتى القطن والسكر ، لا نفكر فى مصدر جديد للثروة ينفعنا فى الغد ؟.

وهل فى مقدورك أن تقول لى : هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعى ، وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة فى نهضتنا ؟.. وإلى أى مدى نتحو نحو الحضارات القائمة ؟.. أو أننا سنبقى حيارى فى حدائق المعرفة ، لا ندرى ماذا نأخذ وماذا ندع ؟.. فأنت ترى أنه لم يوضع شيء بعد ـ حتى على الورق ـ لتحديد العمل والزمن مما يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا ، بل إنه لم ينظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة ، تبعا لحاجة البلاد ، حتى لا يضيع علينا الوقت ، فهل أنت ما زلت من المتفائلين ؟!..

من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٧م .

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج ، فالباقى بعد ذلك كثير ، بل إن بمجرد السير الآن فى طريق العمل عسير ، إذ بمن نعمل ؟.. إن الأيدى العاملة قد لحقها الفساد ، فهى مثل « تروس » الساعة المختلة ، تذور فى غير حدود . فيد الوزير أحيانا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأسها على عقب ، دون أن تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاص من المرءوسين ، وإن الموظف مهما يكبر ، ومهما ينبغ ، لا يعدو أن يكون تابعا يتلقى أمر رئيسه ، ويؤمن على رغباته ، وإن علم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد !.. وهكذا أهدرت الشجاعة الأدبية ، وجبنت النفوس عن تحمل المسئولية ، بل إنه ليحدث أكثر من ذلك ، فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان الأخصائيين ، يبحثونها فى شهور ، فيأتى وزير يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط ، ويؤشر بقلمه الأحمر مناقضا ما جاءت به اللجنة ، كأنما هو يتحدى تلك العقول ، ليظهر أن رأيه « المرتجل » لساعته خير وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور ، ولكن الأدهى والأمر أن يجد فى أكثر الأحيان من بين موظفى وزارته ومن هؤلاء الأخصائيين أنفسهم من يقول له : « آمين ، آمين !.. » فهل بمثل هذا الدولاب الحكومى نستطيع أن نسير فى تنفيذ خطة أو برنامج ؟.. فإلى أن يعلم الوزير كيف يحترم رأى موظفيه المختصين ، وإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم ، وإلى أن توزع الأعباء والمسئوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل النظام محل

الفوضى فى علاقة الرئيس بالمرءوس ، فلن تكون الأداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى فى تنفيذ مشروع من المشروعات !.

وإنى أسوق إليك مثلا صغيرا للإدارة الحكومية الصالحة ، ما ذكره يوما صحفى أمريكى قال : إنه ذهب لمقابلة وزير خارجية « إنجلترا » قبل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف « إنجلترا » من ذلك الحدث الهائل الذى يهدد العالم . فوجد الوزير مطرقا فى مكتبه ، وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم ، غارقا بين تقارير فنية ووثائق تاريخية ، فرفع الوزير رأسه وقال للصحفى : « تسألنى عما إذا كنا سندخل الحرب ؟!.. لست أنا الذى يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير !.. ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال « إن وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل وجوهه ، وهو وحده الآن صاحب الكلمة ، وعليه تقع التبعة ، ونتيجة أبحاثه هى وحدها التى ستنير لنا الطريق كسياسيين ، فنقرر إذا كان من واجب « بريطانيا العظمى » دخول الحرب ؟!..

من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٧١٩م .

الحرب بكل الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التى نكبت بها مصر ، وهذا الغلو والإغراق فى الخصومات ، فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شيء وتحطم كل شيء ، إن فى كل بلد راق حدودا مقدسة تقف عندها الخصومة وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد ، فإقحام الدين مثلا فى ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم فى أى شعب ديمقراطى متحضر !..

فالديمقراطية ليست كلمة تقال فى الخطب ، لأنها جميلة ذات رنين ، ولا هى بناء شامخ يسمونه « البرلمان » ، ولكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع !.. وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية ، كذلك ينبغى أن نتذكر دائما أن الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شيء ، وأن خصومة المبادئ ليست معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى ترجى منهم فى وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده !.. فلتكن الخصومة فى حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع ، وليعتقد كل فى خصمه أن عجزه يوما بعد خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك فى يوم ، فلتكن إذن السهام

المصوبة من طرف إلى طرف فى غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف ، فليس من مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين ، إنما المصلحة هي فى أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تتهيأ لكل يد الفرصة لخدمة البلاد !..

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨م) .

نعيم الانتخابات

معذرة يا صديقى إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية ، لأتحدث فى خاطرة مرت بى ، ولعلها مرت بك ، فالأفكار الآن لا يشغلها غير أمر واحد : الانتخابات .. يخيل إلىّ أن موسم الانتخابات نعيم لكل الناس إلا للمتقدم إلى الانتخابات : ويل لهذا المتقدم !.. إن كل خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة ، فهو لا يحرك رجليه قبل أن يدفع مائة وخمسين جنيها « رسوم الامتحان » ثم يسير فاتحا جيوبه بالمال ، وعيونه بالحرص والحذر ، وفمه بالكلام والخطب والوعود .

أما نحن ـ معشر النظارة والمتفرجين المحايدين ـ فهو لنا تسلية أمتع من سباق « الدربى » !.. وإنى لأرى الناس حولى مبتسمين يتحدثون فى أخبار هذه « الملهاة » بلذة واهتمام ، وأرى فئة العارفين والحذاق يستعرضون المرشحين ، ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد ، وهى تتبختر فى المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق !.. على أن النعيم الحقيقى فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين .. هذا المخلوق العارى القدمين الذى يجوع أكثر الأسبوع ، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة كما نرى نحن وجه الحظ عابرا فى طريق الحياة . هذا الذى يسمونه إنسان بحكم النوع وهو فى الحقيقة لا يسترعى التفات إنسان !.. هذا الآدمى المهمل الذليل لا يرد اعتبارة ولا تعود إليه آدميته إلا فى أيام الانتخابات ، فإن « صوته » الضائع مع الريح كأنه صوت كلب ضال ، وهو اليوم (صوت) له خطره وله

سعره ، وله طلابه ، وله من يجرى خلفه ، ويقدره ، ويدفـع فيـه نقـودا ، وهذه المعدة الخاوية التى لم يدخلها غير الفجل والجبن ذى الدود تنتظرهـا اليوم الولائم ، وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون !..

وتلك الأقدام الحافية التى لم تعرف غير المشى خلف حمير « السباخ » توضع اليوم تحت تصرفها السيارات و « التاكسيات » ، تنقلها من حفلـة إلى حفلة .. نعم .. إنها فترة لا تحسب من عمـر الفـلاح ، وهـو بذكائـه يعرف أنها لا تدوم ، فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويراها تـزول فمـا يأسف ولا يزيد على أن يقول :

كانت أيام « استنخاب » ركبنا فيها « كنابيل » ، وأكلنـا « زفـر » ودخلت جيوبنا « نقدية » !..

من يدرى لعل فريضة « الزكاة » التى ذهبت مـع زمـن قديـم عـادت اليوم فى ثوب جديد !.. نعـم إن لم يكـن مـن فضيلـة الانتخابـات إلا أن تشترى صوت الفقير بالذهب وتسد فمه بالطعام ، وتركبه ما لم يركـب ، وتريه ما لم ير ، وتحيطه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت قصير ، — لكفى بها فضيلة ..

إن الانتخابات فى نظرى ليسـت — حتـى السـاعة فـى هـذا البلـد — مظهرا من مظاهر الديموقراطية ، ولكنها أول معلم يفهم الفلاح أولا معنى الحياة الإنسانية ويذيقه طعم الأدمية !..

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨م) .

« شركة مقاولات الانتخابات »

نعم يا صديقي !.. لقد خطر لى أن فى الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلا للعمل ، فإن من المرشحين من قد يكون مثلي ومثلك في براءة الحمل الوديع ، لا يعرف كيف ينال من خصومه ، ولا كيف يمدح نفسه ، ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين !.. فما أحسن لمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة ، ويتفق معها على « المقاولة » ويدفع « العربون » ، ويذهب إلى منزله فينام ملء عينية ، وتقوم هي بكل ما يجب من إقامة السرادق ، وتأجير الخطباء ، وإعداد الولائم ، وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية .. الخ .. الخ .. !

وما على مثلي ومثلك بعد ذلك إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حب الاستطلاع ، ويجلس في سرادق الاحتفال الذى تقيمه الشركة ، فيرى ويسمع اللذيذ الطريف ، يرى خطباء الشركة قد قاموا ، أو اعتلوا المنصة واحدا تلو واحد ، يوسعونه مدحا ، ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل ومجيد ، ويتكلمون في ذمته وطهره وكفايته ونزاهته ، وهو لم يرهم ولم يروه مرة قط !.. ثم يعرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المر ، ويذكرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس ، وما تكاد تختتم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم الشركة « فاتورة » الحساب ، فإذا استكثرت المبلغ أقسموا لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة ، وأن خصمك وحده

كلف الشركة « شتائم » بما يساوى مائة جنيه .. إلى هنا لا بأس .. لكن لو خطر لك أن تسير قليلا فى البلدة لوجدت عجبا ، فإن سرادقا آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو هو أيضا ، وقد قام فيه خطباء آخرون من الشركة يمدحون الخصم ، ويغسلون عنه ما لحقه فى السرادق الأول ، وينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب ، ويلصقون بك من « الشتائم » ما يساوى مائتى جنيه ، فإذا ذهبت غاضبا إلى الشركة قالوا لك :

ـــ يا حبيبى حضرتك « زبون » وحضرته « زبون » !!..

فإذا صحت محتجا ابتسموا لك فى أدب بما معناه أن « لا فضل لزبون على زبون إلا بالمال !.. » .

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حسن الحظ على هذا الوضع ، ولكن من يدرى !.. لعل الحال فى جوهره يجرى أحيانا على هذا المنوال ، فإن ما يسمونه حفلات الانتخاب يؤدى غالبا إلى مثل ذلك بدون أن نقصد ، وإن يد « التنظيم » هذه إذا دخلت فى مسائل الواجب والضمير فإنها تتجه غالبا إلى فم الساذجين ، فتزحمه بألوان من الطعام ، يضيع معها صوت الواجب والضمير !..

العـــرائس

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة ، لو حدثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية ، والجلوس تحت قبة البرلمان الذهبية ، ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟..

أما أنا فإنى كنت أقول هكذا :

سادتى الناخبين !..

باسم « الديمقراطية » أتقدم إليكم ملتمسا عطفكم !.. إنى أحب الديموقراطية ، ومن ذا الذى لا يحب الديموقراطية ؟ .. تسألوننى ما معنى هذه الكلمة التى تسمعونها هذه الأيام كثيرا ؟.. تعريفها بسيط : « إن « الديموقراطية » هى أن رهطا من الجياع الحفاة يمنحون مرتبا شهريا قدره أربعون جنيها لرهط آخر من الثراة والعتاة !..

لعل هذا المنطق يدهشكم ، ولكن تلك هى الحقيقة !.. هنالك أعجب من ذلك ، فإن جوف الحقيقة مملوء دائما بالغرائب لمن أراد الغوص فيها !.. إن بيننا ــ معشر المرشحين ، وبينكم معشر الناخبين ـــ سوء تفاهم كبير ، فإننا نطلب إليكم أن تخدمونا ، وأنتم تحسبون أننا وجدنا كى نخدمكم ، أنتم تظنون « البرلمان » هو المكان الذى نتكلم فيه عنكم طول الوقت ، وعن جوعكم وفقركم وجهلكم ، ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقيكم ، ونحن نرى فى تلك القبة الذهبية شرفا ، لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعدا ، ونرى عضوية المجلس لقبا نتوج به أسماءنا ، ونزين به « بطاقاتنا » !..

إن عضوية البرلمان فى نظرنا ليست إلا عربة « الرولزرويس » التى نرفع بها مركزنا الاجتماعى فى أعين الشعب ، ونحن إذ ننفق المال فى هذا السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أو لقبا أو مقاما ، فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ووجدنا أيديكم العارية السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان ، فإننا نتربع فيه كالعرائس فى « الفترينات » ، ومهما صحتم وناديتم وصرختم بعد ذلك فإننا لن نسمع أصواتكم ، لأن بيننا وبينكم حاجزا من زجاج ، ولن تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصبعكم من خلف البلور ، فنحسب ذلك منكم إعجابا فنزداد صلفا وتيها !..

أيها الناخبون !.. عجبا ، إنى حقا لعلى غاية السذاجة إذ أفضى إليكم بكل هذا فى خطبتى التى على أساسها أنتخب .. ما العمل الآن ؟..

أتنتخبوننى برغم ذلك ؟.. لعل صراحتى على الأقل تشفع !..

(من مساجلات مع « منصور فهمى » عام ١٩٣٨م) .

الشحـــاذون

إن تعاقب الوزارات السريع فى مصر ، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحـاب « المعـالى » لا يصنعـون شيئا غـير الانتظـار فـى « ميادين » السياسة ممدودى الأكف . ماذا ينتظـر هـؤلاء المتعطلـون ؟.. ينتظرون دورهم فى العود إلى الركوب ؟..

نعم .. إن « الحكم » أصبـح الآن مثـل أرجوحـة « الخيـول الخشـبية الدائرة » التى يركبها الأطفال فى مقابل مليمات ، ولو أعطى طفل ألـف مليم لأنفقها كلها فـى هـذه اللعبـة اللذيـذة ، فهـو يحـب الركـوب لمجـرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبى المطلى بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من الـدوران ، فـلا يفيـق إلا وقـد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفـا بـلا حـراك ينظـر إلى حصانه يـدور بغيره ، وفـى قلبـه الصغـير حسـرة ، وفـى عينيـه الزائغتـين علامات الصبر النافد ، إلى أن تنتهى الدورة فيخفق قلبه أملا فى أن يعـود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !..

أما الفائدة من ذلك فلا شىء غير اللهو والسـرور ، فهـو متـى امتطـى صهوة الحصان الخشبى تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل ، وأنه قـد وصل .. ويلعب برأسـه دوار « الأرجوحـة » ، أو دوار السـلطة الباطلـة و « الفروسـية » الكاذبـة ، فيقنـع بذلـك ، ولا يفعـل شيئا غـــير ازدراء الواقفين فى الانتظار ، وهو يمـر مـر الـبرق متعاليـا متصايحـا صيـاح اللـذة والظفر !..

فالحياة فى مصر لهو فى لهو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى جانب فراغ .. الجميع من شبان وسياسيين وقادة ومقودين ، لا عمل لهم غير التطلع إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية ، وهى تدور !.. وهذا الروح العام قد أثر فى روح الشعب كله ، فنحن لا نكاد نرى طرقاتنا فى مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهى ، ويمدون أيديهم يطلبون شيئا ، لقد سرت روح البطالة والسؤال فى كل طبقات الشعب : الجاهل منها والمتعلم ! وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت أن فى الوجود شيئا يسمى العمل والكدح والاعتماد على النفس ، وإن مصر قد أصبحت بلدا تخفق عليه راية « التسول » العام : وهنا الخطر الداهم ، ولا أبالغ إذا قلت : إن روح « الشحاذة » موجودة فى كل نفس مصرية فى الوقت الحاضر ، فالوزير الذى تسول طويلا فى انتظار منصبه ، لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح ، حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه اللّه ، فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومى فى التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المرذولة إلى حد نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرءوها « شحاذة » ، وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألنى نسخة من كتبى « شحاذة » ، ولا أستطيع أن أجلس فى مكان حتى أسمع من حولى أصوات الإلحاح فى سؤال شىء من الأشياء !..

حقيقة إن الحياة فى مصر أصبحت لا تطاق ، فإما أن يتغير هذا الروح العام ، وإما أن نيئس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام !..

على أنى أعود فأقول دائما إن الذنب فى كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة ، فهم الذين علموا الشعب

كله ، وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ، ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاتـه يعملـون فـى سـكون ، لخجـل وعمـل هـو أيضـا بغـير صخب ، لأصبحنا حقيقة شعبا متحضرا يعمل ولا يتسول !..

أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا مثل أبـى بكـر ، يـوم ولى الخلافـة ، فقد واصل عمله فى بناء الدولة الفتية حتى رضـى واطمـأن ، فجهـز إبلـه ذات صباح ، وأراد أن يخرج فى تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

ـ كيف تخرج فى تجارتك وأنت الخليفة ؟..

ـ وكيف أعيش وتلك صناعتى !..

ـ نعم .. هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منـه ، إنمـا هـو فـى نظـره واجـب محتـوم عليـه كعضو من أعضاء الأمة . أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكفلهـا عمل آخر وكدح آخر !..

الأحزاب والشعب

سألتني إحدى المجلات السياسية عن رأيي في أحزابنا المصرية ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال الشعب فقلت :

إن المفروض في ممثلي الشعب ، أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ببرامج ثابتة واضحة محدد فيها بالدقة : الخطط ، ووسائل التنفيذ لمطالب طبقات الشعب المختلفة التي يمثلونها .. ولكن الذي يحدث اليوم هو غير ذلك ، فإن كل مشروع حيوي يهم الشعب ، إنما يصدر عن جهات أخرى غير ممثلي الشعب !.. ولم نعد ندري ، فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟!..

خذ مثلا ، مشروع مقاومة الحفاء ، ما كان أحراه أن يكون جزءا من برنامج حزب من الأحزاب !.. إن كلمة أحزاب ـ كما تفهم في مصر ـ تطلق في الحقيقة على سبيل التجوز ، إذ أن ليس في مصر حزب بالمعنى الحقيقي لكلمة حزب كما تفهم وتستعمل في النظم الديموقراطية الصحيحة !.. إنما في مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزابا ، لا هم لكل فرقة من هذه « الفرق » إلا « توزيع » المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية وتنظيم حركة « تذاكر » الانتخاب ، أما برنامج « الرواية » فليس من هم أحد التفكير فيه !.. فالأمر في ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل « ومتعهديها » الذين يركزون كل نشاطهم ، في مسألة توزيع المقاعد وتحصيل قيم التذاكر ! أما مسألة « البروجرام » والغرض من الحفلة وما إلى ذلك فلا يلتفتون إليه ، ولا يجعلونه من شأنهم !.. وإني لأحب هنا أن أقول : إنه قد آن الأوان لأن يسأل

الشعب عن البرامج لا عن شغل المقاعد !..

إن الشعب اليوم ، قد تغير فى نظرى ، وإن عقليته قد تكونت ، وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومى وحياته المادية !.. إنه يطالب اليوم أن يعيش ، لا معنويا فقط ، كما كنا ننادى بالأمس ، ولكن ماديا أيضا ، عن طريق اللقمة المتوفرة للملايين من المحرومين !..

ــ ألم تتجه العناية فى هذه الأيام إلى طبقات الشعب الفقيرة ؟..

ــ هذا صحيح ، ولقد كثر جمع الصدقات ، ونشطت حركة التبرعات .. ومهما تكن الدوافع إلى ذلك ، فهى على كل حال ، عواطف كريمة ، تنم عن تيقظ روح الأريحية فى نفوس ذوى الفضل من الأغنياء والقادرين .. على أنه ينبغى لنا ، مع ذلك ، أن نتساءل : إلى متى نظل فى مصر ــ ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا ــ نعتقد أن إصلاح شئون الطبقة الفقيرة معناه التصدق والإحسان ؟!.. وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لا نجد فيه ممثلين لملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منهضا لها ، مصلحا لحالها ؟!.. ما معنى الديموقراطية إذا لم تكن هى تمكين طبقات الشعب كلها ــ على اختلاف مراتبها ومطالبها ــ من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قباب المجالس النيابية ؟!..

ما من برلمان فى أى بلد ديمقراطى فى العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه ، لأنه ما من أحزاب فى العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة !..

فى البلاد الأخرى أحزاب ذات مبادئ مقررة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، ممن ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن بين المصالح . بينما أحزابنا ، على تعددها وكثرتها ، لا تمثل فى حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة ، هى طبقة الملاك !..

هى التى نسمع صوتها فى البرلمان !.. وهى التى اتخذت لنفسها صفة القوامة على الطبقات الأخرى ، وهى التى تستطيع أن تمنع وتحرم

الطبقات الأخرى ، حتى من حق الاعتراف بنقاباتها التى تنظم شئونها ، وتدافع عن حقوقها !!..

ويحضرنى هنا مثل أحب أن أذكره ، فقد وجدت فى حانوت حلاقة ذات مرة حلاقين : أحدهما يعمل إلى جانب الآخر ، ويتقاضيان أجرين متساويين ، الأول مصرى ، والثانى يونانى ، فعلمت شيئا عجيبا ، فقد قال لى العامل المصرى إنه ، وهو فى بلاده ، لا يستطيع أن يعلم أبناءه بالمجان . ولا أن يستشفى بالمجان ، وإنه لا يجد أحدا ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش .. بينما زميله اليونانى يعلم أولاده كلهم بالمجان ، فى المدارس اليونانية ، ويستشفى هو وعائلته بالمجان فى المستشفيات اليونانية ، لأن هناك هيئات ونقابات يونانية تعنى أتم العناية ، بمساعدة العمال والأجراء اليونانيين !.. وقد روى لى هذا العامل المصرى أيضا ، أنه ذهب بابنته الصغيرة يوما إلى مدرستنا الأولية ، فوجد عاملا مصريا آخر ، قد عجز عن دفع مصروفات ابنته على ضآلتها « عشرة قروش شهريا » فاضطر إلى العودة بها إلى البيت ، مما حز فى نفس زميله فأخرج « أجره اليومى » من جيبه ودفعه من أجله .

لا شك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا الوضع للأشياء يجب أن يتغير !..

الفكر والشعب

سألتني كذلك مجلة سياسية أخرى :

هل ترون أن الكتاب الاجتماعيين فى القرن الماضى كانوا هم قادة الإصلاح فى أوربا وأمريكا ؟..

ـ بالتأكيد ، بل لا يزال الكتاب حتى اليوم هم الذين يمهدون السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة ، وإنى أرى أن كتابات روائى مثل « شارلس ديكنز » كان لها الفضل فى حمل ساسة إنجلترا من محافظين وأحرار وعمال على وضع المسألة الاجتماعية فى رأس برامج أحزابهم .. واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لا يفتأ « ويلز » و « برناردشو » و « برستلى » يرسمون الاتجاهات التى ينبغى أن يتجه إليها بعد الحرب ، لا الشعب البريطانى وحده ، بل البشر كافة .. فهم يبغون انقضاء عهد الشقاء الاجتماعى وبزوغ عهد يستطيع أن يعيش فيه كل فرد حياة جديرة بالكرامة الآدمية ، فلا إغراق فى البؤس ولا إغراق فى الترف ، بل نظام يقوم على التوازن الاجتماعى والتضامن والتعاون !.. نعم ، الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح ، وهم واضعو أسسه وخططه فى كل زمان ومكان !..

ولئن كانت حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر قد تأخرت حتى اليوم ، فذلك سببه تقصير الكتاب والأدباء . إنى أتهم بملء فمى الأدب المصرى بهذا الجرم !..

إن الأدب فى مصر لم يكن إلى عهود قريبة غير حلية عاطلة فى

معاصم الأدباء .. لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب ، لا على هامش المجتمع فقط ، بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء .. لم يكن الأدب فى مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون .. وإذا كان هؤلاء هم كتاب أمة ، وهذا هو أدبها ، فلا عجب إذا ظلت حال المجتمع على ما نراه اليوم !..

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن .. وإنك تستطيع أن تقول : إن الأدب فى مصر يتجه فى الطريق الصحيح ، وإن كثيرا من الكتاب المعاصرين نشروا كتبا وأفكارا تتصل بصميم المجتمع ، وإن آراءهم تسمع وتحترم وتؤثر أحيانا فى اتجاهات الحياة العامة !..

ــ كنتم أول من اقترح منذ عامين إنشاء وزارة الشئون الاجتماعية فى حديثكم المشهور عن النظام البرلمان ، وها هى ذى قد أنشئت !..

ــ إنى اقترحت أن يعدل اسم وزارة الأوقاف واختصاصها ، وتجعل « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » بهذا النص ، وكانت فكرتى فى ذلك أن يتسنى تحويل أموال الأوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة ، كالملاجئ والمستشفيات والنوادى الرياضية الخ .. ولكن فكرتى قد أدت إلى إنشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع ، فضاعف ذلك التفات الناس إلى الفكرة الاجتماعية فى ذاتها . وكان فى مجرد وجود هذا الهيكل الرسمى المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة فى أنحاء البلاد . مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسة ، وأصبحت تثار فى البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقهما فى حياة إنسانية معقولة ، وحصة الفقير وحقه فى معونة الغنى ، وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقى بمستوى حياة الشعب ، وكثرت المحاضرات فى كل مكان ، وتكونت جمعيات الإصلاح ، وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والانصاف من

الأفواه ، ـ كلها مجمعة على أنه ينبغي وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات ، وترك الملايين في جوع وعرى كالسائمات !..

ولكنى أقول باعتبارى كاتبا : إن الأمر لم يعد فى حاجة إلى توجيه ، فإن حال الشعب الآن لا يختلف فيه اثنان ، وإن قادة الرأى ورجال الأمة ومفكريها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ، ويوضحونها ويصفون لها العلاج .. وفى كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة ، وتتسع دائرة المصغين إلى رسالتهم ، إلى أن يأتى اليوم الذى تصبح فيه المسألة الاجتماعية هى المسألة الأولى فى الدولة : لها صحافتها ولها ساستها ، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم ، ويكون النجاح أو الإخفاق فى تحقيق برامجها هو الذى يبقى الوزارات أو يسقطها !..

فها أنت ذا ترى ما أرمى إليه ، إن المسألة الاجتماعية عندنا هى فى طور « الهواية » ولن تدخل فى طور « العمل الجدى » إلا إذا طالب بها الشعب نفسه ، ولما كنا فى نظام ديموقراطى فإن الشعب عندئذ يكوِّن أحزابه وينتخب ممثليه طبقا لهذه المطالب ، فإلى أن تصبح المسألة الاجتماعية فى مصر ذات تأثير مباشر فى أداة الحكم ، كما لمسألة السياسية سواء بسواء ، فليس لنا أن نقول إن فى مصر مسألة اجتماعية على الاطلاق !..

« كادر » المقامات

إني مقر للتخفيض الذى حدث فى « كادر » المرتبات ، فقد آن لهذا المخلوق الذى يسمونه « الموظف المصرى الكبير » أن يتواضع للّه وللناس ، هذا الآدمى الذى خلقه اللّه بمواهب تساوى عشرين جنيها فى الشهر ، فقدرت له الدولة مواهبه بمائة جنيه فى الشهر !.. هذا الآدمى الذى ألقت به الطبيعة على الأرض ، ليزرع بسواعده العارية عملا مسئولا ، ويحصد ثمرا معقولا ، فإذا هو قد انزوع بين أوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد آخر كل شهر غلة ٥٠٠ فدان !.. هذا الآدمى الذى صنعت له أجيال الشباب المصرى فى نفسها تمثالا ذهبيا تعبده ، فصرفها عن الالتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التى قام بها أشخاص اسمهم « فورد » و « روكفلر » و « كروب » بل حتى أشخاص فى المحيط المصرى اسمهم « عدس » و « بنزايون » و « موصيرى » .. هذا المثل الأعلى الحكومى الذى غرسته فى نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل « الروتين » الفارغ ، هو الذى أفقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء المنتجين ، وهو الذى أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية ، فاحتلتها الأجانب الأحرار ، أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد !.. تخفيض آخر ينبغى أن نفكر فيه بعد أن انتهينا من كادر « المرتبات » ذلك هو كادر « المقامات » !..

« مقاماتنا » أيضا متضخمة أكثر مما ينبغى .. تضخم غير طبيعى ، وهو ما قد يسمى فى عالم الطب بالانتفاخ ، وفى عالم الاجتماع

« بالنفخة » ، وكلاهما فيما أعتقد شيء واحد وعلته واحدة ، وكلاهما إذا فتح بالمشرط وجد بداخله « هواء » فهي مجرد أسماء لا معنى لها ، وهي لا ترفع ولا تخفض ولا ينبغي لها أن تفعل ، يكفينا أن ننظر حولنا فلا نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التي تعج بالعظماء في مختلف الفروع والأعمال قد سارت على ما نسير عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة . فإن « مستر تشمبرلين » هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقاما في العصر الحاضر ، ومع ذلك قد يشارك « مستر جون » كمساري المترو في لندن لقبه المتواضع ، و « مسيو دلادييه » هو اليوم من أقطاب العالم ولا لقب عنده إلا ما عند « مسيو ريمون » خادم المطعم الذي يأكل فيه .. تلك هي العظمة ، وتلك هي الديموقراطية !.. بل إن « الهر هتلر » هو أيضا لا يمتاز عن « الهر شاخت » سائق سيارته في اللقب !.. قد يسند إليه أحيانا لقب « المستشار » غير أن هذا حقيقة لا لقب .. بل أقل من حقيقة ، لأن « هتلر » لا ينتظر حتى يستشار في أمر من الأمور ، وهو المتصرف وحده في مصير بلده ، المؤثر في أقدار الشعوب . ولماذا نذهب بعيدا وقد كان الامبراطور العربي العظيم « عمر ابن الخطاب » لا ينادى إلا بلفظ واحد يا « عمر » ..

إنه في رأيي داء تصاب به غالبا الأمم الصغيرة التافهة ، فهي كالطفل يحب كل ما هو براق طنان أجوف ، وليت هذا الداء محصور في طبقة كبار الموظفين وحدهم ، بل إنه مع الأسف قد تعداه إلى جسد الأمة كله ، فإذا كل من لبس « بدلة » يتوق أن يناديه الجميع بلقب « بك » ويكتب له الجميع « صاحب العزة » ، وأصبح لقب « أفندى » سبا فاحشا !.. ومن أراد أن يشتم أحدا في الطريق العام أو على صفحات الجرائد أو على مظروف خطاب ، فما عليه إلا أن يقول له يا « أفندى » !..

من المسئول عن هذا المرض الخطير ؟.. لا أشك في أنهم هم الموظفون

الكبار ، أو قادة الأمر فى البلاد ، من أصحاب « الرفعة » و « الدولة » و « المعالى » الخ ، فهم بتكالبهم على المظاهر الفارغة قد علموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال !..

فلعل الروح الجديد الذى يسرى اليوم فى مصر الناهضة المستقلة يدفعها فى طريق العمل والبطولة ، ويحفزها أيضا على التفكير فى تغيير نظرتها إلى الألقاب ، وتعديل كادر المقامات ، بما يتفق مع الروح السائد الآن فى العالم ومع طابع العصر الحاضر فى كل دول الأرض .. الديمقراطى منها وغير الديمقراطى !!..

(حديث نشر عام ١٩٣٨م) .

مصر والشعار الـدولى

قرأت تعقيبكم على إثارتى لحرية خلـع « الطربـوش » فـاسمحوا لى أن أبدى بعض حججى وأسبابى ، وأبدأ فأقول أن لا محل للقلق والخوف من إضعاف الروح القومى إذا خلع « الطربوش » فإن الروح القومى هو فـى القلب الحار لا فى ذلك « القرطاس » الأحمر . وقـد يكـون هنـالك محـل الخوف لو أننا كنا أول أمة فى الأرض قادمة على هذا التغيير .. أمـا وقـد فعلت ذلك قبلنا أمم شرقية ، هى الآن خير منا فى قوة روحها القومـى ، فليس لنا إذن أن نـتردد أو نخـاف ، فمـا مـن أحـد يستطيع أن يقـول إن اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت روحها القومى يوم لبسـت ولبس مليكها ــ وهو ذو صفة دينية مقدسـة ــ اللبـاس الـدولى الكـامل ، وما من أحد يستطيع أن يقول إن النبى العربى كان له زى خـاص ، فهـو قد لبس القلنسوة ولبس اللامة ، و لم يكن هنـالك فـارق فـى اللبـاس بـين مسلم ومسيحى ويهودى !..

واليوم وقد اتجه العالم كله فى حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلـة ، وسن هذه السنة الحميدة التى ترمى إلى وحدة الزى فى الدنيا قاطبة ، هذه السنة التى عرفها الإسلام منـذ نشـأته ، فلـم يحفـل بـزى أو بلبـاس حتـى لا يجعل بين الناس فوارق غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم !..

اليوم وقد شعرنا بحاجتنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا بإزالة الفوارق التى تشطر السكان إلى طـائفتين غـير متعـادلتين .. اليـوم ونحـن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج فى عصبة الـدول المتحضـرة ،

ـ أية فائدة لنا أن نضع بيننا وبين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الذى ينادى فى كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من الأمم الشرقية المسلمة وغير المسلمة ، التى أعلنت للعالم نهضتها ، وقامت تجلس جنبا إلى جنب مع أرقى الدول حضارة ؟!..

أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجر إلى تغيير اللغة أيضا ، فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التى تماثلنا فى الحال ، ولنبحث : هل غيرت « اليابان » و « الصين » و « إيران » و « العراق » لغتها ؟.. بل متى كان الاتحاد فى الزى يوجب الاتحاد فى التفكير ؟ إن الملحوظ فى حضارة اليوم أنها وحدت الزى فى شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعب وثقافته !..

وها هى ذى « أمريكا » تماثل « إنجلترا » فى الزى وتتكلم الإنجليزية مثلها ، ومع ذلك فإن الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند « الأمريكان » هى غيرها عند « الانجليز » .

لا ينبغى إذن أن نتمسك بكلمة « الشعار الوطنى » لشعبنا أو لحكومتنا المصرية ، فإن مستبلنا قد تغير ، وبعد أن كنا شعبا منعزلا قد أصبحنا شعبا منضما إلى هيئة الشعوب الأخرى ، لنا ما لهم ، وعلينا ما عليهم ، فالأحرى أن نتمسك منذ اليوم بكلمة « الشعار الدولى الرسمى » لأمم العالم ، كما تفعل كل أمة تركت عزلتها وظلمتها ، وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور !..

وبعد ، فإنى لشديد الإيمان بالتطور الطبيعى لما أراه من تطور الشرق السريع نحو حياة جديدة وتفكير جديد قوامه الخروج عن العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون مع العالم ، وإنى لألحظ تقدم مصر فى هذا السبيل تقدما يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهره ، فالمرأة المصرية قد غيرت زيها فى سكون وشجاعة ، فوافقها الرجال دون جدال !..

هذا يدلنى على أن مصر تتحرك بالفعل وتسـير ، وإن كـانت لا تـزال تسير مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير !.. نعم كل هذا يثبت عقيدتـى أنه لن يأتى عام ١٩٥٠م حتى تكون مصر متحدة مع العالم المتحضـر فـى زيه الكامل المعروف ، تلبية لنداء التطور الطبيعى للأشياء !..

من رد على تعقيب « خليل ثابت » عام ١٩٣٦م .

المعنى الإنسانى لوحدة الـزى

مرة أخرى أناقش الحجة الوحيدة القائمة فى جانب « الطربوش » وهى كلمة « الشعار الوطنى » وأغلب المصريين مفتون بهذه الكلمة ، وأغلب المصريين ما زال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص ، شعب صغير عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة . وقليل من المصريين يرى من المفاخر أن يتمسك رجل أو رجلان بلباس أحمر فاقع صارخ ، بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المتحدين فى زى معروف !.. لقد لحظ بحق أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة فى آسيا وإفريقيا : أن الشعوب المنحطة هى أكثر الشعوب تمسكا بتقاليد الزى ، وأكثرها حبا فى التميز عن غيرها من الأمم بأردية صارخة الألوان .. وأزيد أنا على هذا المفكر بقولى : إن فكرة التميز بشعار خاص ليست فقط فكرة « بربرية » فى عصرنا الحاضر ، ولكنها تدل كذلك على ضعف الإدراك فى أمة من الأمم ، فإن من علامات الإدراك الضعيف عدم اتساع أفقه للأفكار الإنسانية ولا ريب عندى الآن أن خوفنا وترددنا فى مسألة كمسألة الطربوشى ، وتمشدق الكثيرين بكلمة « القومية » ، ـــ سببه الوحيد أننا لم نزل فى حالة « عزلة ذهنية » لا أكثر ولا أقل ، فنحن فى الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم المتحضر اتصالا يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزء منه ، فنحن فى حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر الإنسانى المتحضر . إنما نحن زراع وخدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة ،

يخدمون المصالح المثالية الأجنبية ، التى قبضت على وادى النيل منذ عشرات من الأعوام !.. هذا كل دورنا الذى نلعبه حتى الساعة فنحن لم نقدم للعالم ما يدله على مساهمتنا فى التقدم الإنسانى ، لأن الفكرة الإنسانية نفسها بعيدة عن ذهنيتنا .. إنا لا نفكر إلا فى أنفسنا وفى حياتنا الصغيرة ، وما يحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد عتيقة .. إن العالم المتحضر لا يهمه أن يعرف عنا شيئا ، لأننا ليس عندنا ما يستحق أن يعرفه العالم المتحضر !.. إنما نحن نعيش كفصيلة من الدواجن وكفى !.. وهو لحسابة تسخيرا ماديا وكفى ! إنى لا أقول إن خلعنا « الطربوش » سيأتى بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف ، كلا مطلقا . إنما أقول وأصر على القول : إن ما رأيته من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالى العتيق ، هذا الاستنكار العنيف وتكالب الناس شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح « القبيلة » الجامد .. كل هذا أدهشنى وأحزننى ودلنى على أن عقليتنا فى ذاتها لم تزل تميل « إلى العزلة الذهنية » ، وأن جراثيم « البربرية » ما زالت متأصلة فى نفوسنا ، وأن أمامنا وقتا طويلا قبل أن نهضم الأفكار الإنسانية فى ذاتها ، ونصبح أهلا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحضرة ، التى لا تتميز باختلاف الزى واللباس ، والتى اتجهت كلها إلى وحدة الزى إيذانا بوحدة الإنسانية !..

البعـــث

حوريس : انهض ، يا « أو زيريس » !..
أنا ولدك « حوريس » ..
جئت أعيد إليك الحياة !..
جئت أجمع أعظمك ،
وأربط عضلاتك ،
وأصل أعضاءك !..
أنا « حوريس » الذى تكون أباه
« حوريس » يعطيك عيونا لترى ..
وآذانا لتسمع ، وأقداما لتسير ،
وسواعد لتعمل !..
ها هى ذى أعضاؤك صحيحة ،
وجسدك ينمو ،
ودماؤك تدب فى عروقك !..
إن لك دائما قلبك الحقيقى ،
قلبك الماضى !..
الميت : إنى حى ، إنى حى !..

« كتاب الموتى »

و « حوريس » ليس إلا « الشباب » يعيد الحياة إلى ماضيه الميت .

نعم هو « الشباب » ، الـذى يكـون أبـاه الوطـن .. وقـد أعطـاه بـالفعل عيونـا يـرى بهـا غـابره العظيـم فـى حريتـه ، وحـاضره الذليـل فـى قيـود الغرباء ، وآذانا يسمع بهـا ضحكـات السـخرية مـن أفـواه الجبنـاء الـذى جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته ، كما أعطاه أقداما يسير بها كى يثبت لهم أنه حى ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدود !.. إن أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو ، وها هو ذا جسده يتحـرك وينمو ، والدم يجرى فى شرايينه ، والشباب على رأسه يصيح :

« إن لك دائما قلبك الحقيقى .. قلبك المـاضى !.. » ويخيـل إلىّ أنـى أسمع الوطن من كل جانب يلبى النـداء ويجيـب الشـباب الأبنـاء : « إنـى حى ، إنى حى !.. » إنى دائما أومن بأن مصر لا يمكـن أن تمـوت ، لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف واحـد ، مكافحة الموت .. ولقد فازت مصر ببغيتها ، كلمـا ظـن المـوت أنـه انتصر ، قـام « حوريس » من أبنائها يصيح : « انهض ، انهـض أيهـا الوطـن ! .. إن لك قلبك ، قلبك الحقيقى دائما ، قلبك الماضى .. » ، وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدو من أعماق الوطن :

« إنى حى .. إنى حى !.. » .

دولة العميان

« هل سمع أحد حتى الآن عن أعمى لا تدرك
يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى !.. »

إنها ليست على مثال تلك الدولة من العميان التى صورها الكاتب الإنجليزى « ويلز » في إحدى قصصه .. فدولته تسير على الأقل تبعا لمنطق خاص .. وتجرى الحياة فيها على نهج متواضع عليه .. أهلها لا يبصرون بعيونهم حقيقة .. ولكنهم استعاضوا عن العين بحواس أخرى أظهرت لهم حقائق الوجود فى أشكال جديدة ، وأنشأت لهم مجتمعا قائما على قواعد خاصة به .. قد ينكرها الغريب عنهم ، ويعجب لها غير الخاضع لظروفهم .. ولكنها فى محيطهم هم طبيعة صادقة معقولة .. تعهدتها يد الخبرة والعناية ، وأدارتها فى فلك الأيام متسقة منتظمة مصقولة .. لا تلمح فى بنائها ثغرة تنم عن عبث أو فوضى أو خرق أو هوس !..

أما دولتنا التى نتحدث عنها هنا فمختلفة كل الاختلاف .. فالعمى فيها من نوع معروف .. وهل سمع أحد حتى الآن عن أعمى لا تدرك يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى ؟! .. هذه العجيبة قد وقعت .. و لم تقع مرة .. ولكنها تقع كثيرا .. وتكاد تكون من الظواهر العادية التى تحدث فى كل يوم .. ولعل أكثرنا ما عاد يعجب لحدوثها .. وهل دهش كثير من القراء وهم يطالعون خبر تلك المصلحة التى تملك قطعة من

الأرض مناصفة مع مصلحة أخرى ، فأجرت الأولى نصيبها لإحدى الشركات بسعر ٣١٥ جنيها للفدان بينما أجرت المصلحة الأخرى نصيبها لذات الشركة بسعر ٢٠ جنيها للفدان .. وظل الأمر على ذلك عشر سنوات ، بلغت فيها خسارة الدولة ١٤ ألف جنيه .. فلما سئلت المصلحة الأخيرة فى الأمر قالت : إنها لم تكن تعرف أن المصلحة الأولى كانت تؤجر نصيبها بذلك السعر المرتفع !.. وهاتان المصلحتان الشريكتان تابعتان لحكومة واحدة فى دولة واحدة ! ولكنها دولة العميان التى لا تعرف فيها اليد اليمنى ما تصنعه اليد اليسرى !..

* * *

ومثل هذا كثير فى هذه الدولة .. فبينما تندفع أفواج الطلاب فى التعليم الثانوى تطلب أمكنة فى بعض المدارس المزدحمة .. يهمس نظار بعض المدارس الأخرى قائلين : إن لديهم متسعا للطلبة وفرجا .. وأولئك لا يعرفون ، وهؤلاء لا يتكلمون .. والوزارة لا ترى هذا ولا ذاك !..

وفى كل عام تطرق أبواب الكليات جيوش من الطلبة ، فتوصد دونها الأبواب ، كأنها جيوش كلاب تهجم على طعام لا حق لها فيه .. وما من أحد يسائل نفسه : ما مصير هؤلاء المطرودين ؟.. وإذا نجحنا فى نفض أيدينا منهم هذا العام ، فماذا نحن فاعلون بأضعافهم فيما يستقبل من أعوام ؟.. فى دولة العميان : لا حساب للغد ، ولا إدراك للزمن !..

وفى كل جهة من جهات الحكومة موظفون ، لهم عين المؤهلات ويقومون بعين العمل .. ولكنهم فى هذه المصلحة يقبضون أجرا ملائما .. وفى مصلحة أخرى ينالون أجرا لا يمسك الرمق .. فإذا أبدوا العجب لهذه الفوضى سمعوا ألفاظا غريبة .. مثل « الكادر » و « التنسيق » .. وغير ذلك من هذيان العميان !..

وفى كل ناحية من نواحى الإيراد أناس يدفعون للدولة ضرائب وأناس لا يدفعون .. وربما كان الذى لا يدفع هو الأقدر على الأداء .. فإذا بحثنا فى النّسب والمقاييس ، التى يؤدى بمقتضاها الناس ضرائبهم ، وجدنا عجبا من التخبط وضياع العدالة !.. فأيدى الدولة هنا لا تدرى فى أى جيب توضع .. وإذا دخلت بالمصادفة فى جيب من الجيوب ، لا تعرف كم تدفع وكم تأخذ !..

ما العلاج لهذه العاهة المتمكنة فى هذه الدولة !؟.. تلك العاهة التى أدت إلى ثورة الطوائف وتخبط النظام ؟!..

لو كان الأمر بيدى لأشرت بصنع « عين » مهمتها أن تبصر لهذه الدولة ، وأن تربط أعضاءها بعضها ببعض ، وأن ترى لها الطريق اليوم وفى المستقبل .. ولنطلق على هذه العين اسما من تلك الأسماء المألوفة لدينا .. فليكن اسمها مثلا : « وزير الخطط » أو « وزير المشروعات » أو « وزير التناسق الحكومى » !.. لا تتبعة وزراة من هذه الوزارات المعروفة .. ولا يكن هو على رأس وزارة من النوع المعروف ، لكنه يوضع فى مكان مستقل .. مع جملة من الخبراء والأخصائيين يرسمون خريطة دقيقة لا تحيز فيها ولا محاباة .. يوضع فيها كل موظف وكل فرد وكل عامل وكل ممول وكل منتج فى مكانه الذى يكفل له الإنصاف فى الحقوق والواجبات ، ويدرسون حاجة البلاد فى كل مرافقها فى حاضرها ومستقبلها ويضعون الخطط الثابتة ، ويهيئون المشروعات للسنوات الخمس أو العشر .. فى التعليم والرى والزراعة والتجارة والصناعة الخ !..

إن فى تولى هيئة واحدة بحث هذه المشروعات ــ جملة فى دار واحدة ــ أكبر ضمان للتناسق والنظام ، لأن كل هذه الفروع المختلفة فى الظاهر مرتبط بعضها ببعض فى الباطن .. لقد قيل إن فتح أبواب التعليم على مصاريعها فى بعض الكليات لا يؤدى فى مصر إلى خير .. لماذا ؟.. لأن

النشاط التجارى أو الصناعى الذى يستوعب فى أوربا أكثر الخريجين ، — متخلف فى بلادنا عن النشاط العلمى النظرى !..

لا بد إذن من إيجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمى ونشاطنا الاقتصادى .. وقل مثل ذلك فى كثير من نواحى خططنا ومشروعاتنا التى تحتاج إلى دراستها جملة ، وتحت قيادة واحدة ، حتى لا يؤدى البحث والتنفيذ إلى ذلك التخبط الذى نرى صدامه كل يوم بين وزارة ووزارة !..

كارثتنا هى أن كل وزارة لا ترى فى الوجود إلا نفسها .. فهى تضع مشروعاتها مستقلة ، وقد عصبت رأسها بقناع ، فلا ترى عينها العمياء شيئا .. ولا تلمس يدها إلا ورق ملفاتها هى ..

وسيظل الحال هكذا طويلا فى دولة العميان ، إلى أن نفطن آخر الأمر إلى ضرورة إيجاد تلك « العين » التى تشرف من عل على أمورنا جملة ، ببصر حاد نافذ خبير !..

فى المـــــرأة

المـرأة والمجتمـع

إنه ليدهشنى حقا أن بعض الشباب المثقف نادى يوما بفصل الجنسين فى الجامعة المصرية ، فى وقت أثمر فيه نظام الدراسة المتحدة وأخرج لنا فتيات حائزات على « الليسانس » و « الماجستير » و « الدكتوراه » ، هن فخر مصر ، وهن أنصع دليل على رقى مصر العقلى فى الوقت الحاضر .. إن القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقا دون تثقيف المرأة تثقيفا تاما ، لتكون زينة البيت ، وأستاذ الطفل ، ومعلم الجيل ! إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها المغلق .. وهى ليست خادما تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ، ولكنها شريك محترم ينبغى أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحبب إليه البيت ..

أما شبع رجالنا طوال الأجيال الماضية جلوسا فى القهوات والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هاربين من وحشة المنزل الذى لا يحوى غير نساء كالخادمات ؟.. نعم .. إن المرأة للبيت ، ولكنها لكى تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة !.. إن من النساء فى صدر الإسلام من فقن الرجال فى فنون الشعر والأدب والعلم والجدل !.. وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين !.. وكان ذلك فى عصر لم تزاحم فيه المرأة الرجل فى المناصب والأعمال !..

كذلك فلننقل عن ثقافة المرأة الأوربية يوم كانت صالوناتها تضم أعظم العباقرة ، دون أن تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها ، فتزاحم

الرجل فى أسباب معاشه .. لا ينبغى إذن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها ..

إن المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحة ، كلنا فى ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة ، وهل تعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلا للشمس والهواء !.. فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة .. فإن ذلك حبسا لعقلها وموتا لشخصيتها ، ولنذكر أننا اليوم ندفع غاليا ثمن سجن المرأة المصرية فى الماضى ، فهى كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدماها ضعفا واحمر وجهها حياء ، وتلعثمت وتعثرت فى هزالها النفسى والفكرى ، وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والإشفاق ، وبدت للأعين أقرب إلى الخادمات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاريبها ، واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها .. كل هذا حدث ، لأن المرأة فى مصر ذبل عقلها من طول السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر .. إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقصى الحيوان الحقير ، جريمة فظيعة ، هى القتل المعنوى بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهو الامتهان لكرامتها ولآدميتها امتهانا يجب عليها أن تثور من أجله ، وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكتت فيما مضى من أجيال ، المسألة مسألة حياتها أو موتها ، وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين ــ والدين برئ ــ لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم !..

إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات !..

المــرأة والفــن

إني ـ إذ أتكلم عن الفن ـ لا يسعني إلا أن أعترف مرغما أن المرأة هي روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن . ذلك أن الإلهام الفني هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وإن لكل لون من ألوان الفن عروسا هي التي تنثر أزهاره على الناس .. ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئا إلا في ظل امرأة ، وهذا القول مني غريب ، ولأبادر بتوضيح قصدي حتى لا يقال إني رجعت إلى فضيلة الحق ، وأعني الحق الذي تراه المرأة !.. كلا .. إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد .. وكل ما في المسألة أني دائما أفرق بين المرأة كشيء يوحي بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء في حياتنا !..

إن عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه .. إن عداوتي ليست إلا دفاعا عن نفسي ، فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبي ، أو باقة من الزهر في حجرتي ، أو أسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها بإرادتي ! ـ لما كان لها عندي غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد ، ولكنها للأسف شيء يتكلم ويتحرك ، وهي أحيانا كالطفل يلقي من النافذة كل شيء ثمين ، ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار .. على أن الإنصاف يقتضيني أن أقول : إن المرأة إذ تحطم من جانب فهي تبني من جانب .. إنها كالطبيعة ، في يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء ، وإنه لمن المستحيل أن نرى في التاريخ حضارة قامت

بدونها ، ولا انحطت بدونها ، وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش !.. إننى أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل « الفن الرومانتيكى » الفرنسى إنما نبع تحت أقدام « مدام ريكامييه » ، وإن صالونات السيدات في أوروبا ، ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب ، ــ هى التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون !..

ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة ، ولكن من يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التى كانت تتصدرها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنين ، ويقرأ تلك الأخبار التى لا تنتهى عن ذكر الجوارى المثقفات والنساء الشريفات ، اللائى كن ينظمن ــ فى السر والعلن ــ تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح ، ولـ « علية » أخت « هارون الرشيد » ذوق فى فنون الشعر والغناء ، أثر فيمن حولها من كبار الفنانين والشعراء .

و « مدام دى بومبادور » أبرز يد فى حركة الفكر والفن فى عصرها . ففى الغرب هى المرأة ـ وفى الشرق هى المرأة ، وحيثما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد فى الحال الفن ، ونهض الفكر ، وقامت الحضارة !..

إذا قيل : إن مصر الحديثة لم تر بعد فنا ناهضا ، ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح ما زالت فى مصر نادرة الوجود !..

إن اليوم الذى تعنى فيه المصرية باقتناء « لوحة زيتية » صغيرة ، أو « إسكيس » بسيط ، ينم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذى يزهو فيه عندنا التصوير ، واليوم الذى تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذى تفضله ، وتجلد هذه النسخة

وتعرضها عرضا جميلا ، وتتحدث عما فيها من كلام وأفكار في مجالسها ، ــ لهو اليوم الذي يرقى فيه عندنا الفكر والأدب !..

وإن اليوم الذي توجد فيه المرأة العظيمة التي تكرس بعض همها ، لإيقاظ هممهم الفنانين ، وتنشيط الحركة الفكرية ، ـــ لهو اليوم الذي نقترب فيه من المدنية الحقيقة .. نحن في حاجة إلى « البيت المصرى » الذي تنمو فيه كل ملكات الطفل الجميلة !..

إن الطفل الأوربي منذ اليوم الأول الذي يستقبل النور فيه ، لا ينام إلا على غناء جميل ، وما يمضي قليل حتى تقوده أمه في عربة صغيرة إلى الحدائق ، فلا يقع نظره الهادئ اللاهي ، في غير وعي ولا إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسمائها وجنانها ، وجداولها ، وما يكاد يعي ويدرك بعض الإدراك حتى توضع في يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور جميلة ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات ، وللطبيعة في مظاهرها الوضاءة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة « الرسم » ، ويطرب لتناسق النغم قبل أن يعرف ما هو الغناء ، ويشعر بتناسب الأوضاع وتجاوب الألوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما يعلم الكلمات والألفاظ التي يعبر بها عن كل هذه المشاعر ، فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الإحساس ، فلا ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق ، وهو عمل المدرسة والكتب .. على أن مجرد الشعور بوجود الجمال في المخلوقات والأشياء طفرة كبرى في التكوين الروحي للطفل ..

فما الجمال إلا المظهر الخارجي والثوب البادي للنواميس العليا ، ففي إدراك وجوده إدراك خفي مبهم لعظمة تلك القوانين التي تنظم الوجود ، وهذا الإدراك هو كل شرف الإنسان وفضله ، وهو وحده الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت الحيوانات ، يوما بالجمال لما لبثت حيوانا دقيقة واحدة . إن أظهر عيب في المصرية الآن هو افتقارها إلى

الذوق ، أى الإحساس بالجمال فى الأشياء .. كم من المصريات تعتبر الأزهار فى بيتها كضرورة الطعام والشراب ؟.. إذا وصلت المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف ، وبلغت فى دقة مشاعرها حدا لا تستطيع معه أن تستغنى فى حياتها اليومية عن الجمال فى الألوان والأصوات والأفكار ، ـ فلقد حق لنا أن نصيح فرحين مهللين بحق : « إن مصر لا تقل رقيا عن أرقى الدول حضارة » ، وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب ، الدقيقة الإحساس بكل ما هو جيمل ، هى نفسها التى تخلق الفنان وتوحى إليه ، لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال !.. إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه حتى تستثير خياله ، فالمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا قيثارة ، وأن أناملها الرقيقة وحدها هى التى تستطيع أن تخرج منه أجمل الأنغام .

المرأة والفنان

الفنان الحقيقى هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج « الفن » ، فهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضا « المرأة » ؟ هـذا أمر اختلفت فيه الآراء .. ورأيى الشخصى أن هـذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغى أن تشابه أية حياة أخرى ، وأن حياتها ستبذل بلا ثمن لرجل بذل حياته هو أيضا بلا ثمن !..

نعم .. يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغى أن تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها ينتج ويخلق !..

زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ، ولا تطالب زوجها أن يعنى بها !.. هى التى تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها .. هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقا بهمومها !.. هى ذلك المخلوق الذى يعيش صامتا صابرا باسما بجوار الفنان طول العمر ، دون أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار !.. هى التى تقف إلى جانبه دائما دون أن يفطن إلى أنها موجودة !.. إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع « الفنان » هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة !.. هى التى تستحق بصبرها وتضحيتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه !.. هى التى تضع فى قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن ، وتعيش هى من أجل الفنان » ..

المــرأة وأشواكهــا

كثيرا ما يخلط الناس أمر نظرتــي وعلاقتــي بــالمرأة ، وإنهــم ليتهمونــنى أحيانا بالتناقض ، إذ يرون أنى أحمل عليها مرة ، وأشــيد بذكرهــا أخــرى .. والحقيقة أني فى كلا الحالين أعتقد ما أقول !..

فالمرأة من غير شك هى الزهرة المشرقة فى بسـتان وجودنــا الآدمــى ، زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن لها أيضا أشواكها !..

جمال المرأة وفتنتها : هما فى نظرى أشواكها الحقيقية التى تضــع فيهــا كل سموم سلطانها وسطوتها ، فالمرأة إنما تشــهر علينــا نحن الرجــال هــذا السلاح ، وتقف به فى وجــه أعمالنــا ، آمــرة فينــا وناهيــة ، صائحــة بنــا أحيانا أن نقف فى طريقنا كما تقف القافلــة تحــت تهديــد قطــاع الطريــق لتأخذ منا كل ما عندنا مــن وقــت وقلــب ومــال وجــاه وشــهرة !.. إنهــا لتجردنا من كـــل شــيء ، وتتركنــا عــراة تحــت ســلطان ســلاحها المســلط المخيف !..

لعلها تتهمنى بالمبالغــة ، ولكــن هــل تســتطيع امــرأة أن تقــول لى : إن هنالك امرأة في الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجال !.. إنك إذا فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية : السطو على رجل !.

إن الرجل قد يعيش لعمله أو لفكرته ، ولكن فكرة المرأة وعملهــا هــو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته ، فإذا نظرت المــرأة إلى رجل مشهور فإنما تنظر إليه بفكــرة واحــدة : أن هــذه الشــهرة لهــا ، وإذا

كان غنيا فالمال لها ، وإذا كان لبقا ظريفا فكل ذلك لسرورها ولخدمتها !..

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح ، ولكني أتكلم عن المرأة ذات الأشواك والمرأة المدججة « بسلاح » الفتنة والجمال !.. وها هو ذا تاريخ البشرية أمامنا ، أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟.. كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية أسمى » من إخضاع الرجل ؟.. إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل !.. إن المرأة مخلوق « غير سلمى » ، متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب .. إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر !..

المـــرأة والعظمـــة

سألتنى إحدى المجلات عن النساء العظيمات فى مصر اليوم ، فذكرت أربعا تصلح كل واحدة منهن أن تمثل ناحية من نواحى العظمة فى المرأة : الأولى والثانية معروفتـان ، والثالثة والرابعة مجهولتـان !.. الأولى والثانيـة رمز لعظمة المرأة الشرقية فـى المحيـط العـام ، والثالثة والرابعـة رمـز تلـك العظمة فى المحيط الخاص !..

الأولى : تلك التى شاركت زوجهـا العظيـم فـى قيـادة حركـة تحرير البلاد ، وتعرضت معه لكل الأخطار ، وقالت له فى شجاعة يوم علمـت أن الشجاعة قد تكلفه الحياة : « امض فى طريق الجهاد وأنا معـك » !.. وحملت عنه وهـو فـى منفـاه لـواء الثـورة وقاسمتـه إلى وفاتـه بيـض الأيـام وسودها ثم بقيـت وحدهـا بعـده رمـز الأمـة المتحـدة ، لا تميـل إلى يمـين ولا إلى شمال ، وتعصف حول أقدامهـا عواصـف الحزبيـة وهـى شـامخة ، كأنها « الوحدة القومية » صبت فى تمثال .. إنها بقيت جديـرة بزوجهـا فى حياته ومماته . بل إنها بقيت تذكرنا ببعض معـانى العظمـة فـى وقـت نسيت فيه كلمة العظمة فى ميادين السياسة القومية !..

الثانية : تلـك التـى قـادت حركـة تحرير المـرأة فـى مصـر والشـرق ، وجـاهدت جهـادا متصـلا فـــى ســبيل الرقـــى بمســتوى المـــرأة المصريـــة الاجتماعى ، وبذلت جهدها ومالها ووقتها فى إقامة المنشآت العامة التـى تنفع الفتاة والمرأة !.. ولقد خالفت هذه الزعيمة فى بعـض الآراء . لكـن مهما يكن من أمر خلافنا فى الوسائل والتفاصيل فـإنى متفـق معهمـا فـى

الغاية والغرض الأسمى .. وهو رقى المرأة المصرية والشرقية ، من أجل ذلك لا يسعنى إلا أن أعترف بعظمة هذه السيدة التى تكرس حياتها لمثل هذا الهدف العظيم ، وأرجو مخلصا أن تنجح فى رسالتها وأن ينصفها التاريخ ، الذى هو لا شك مثبتها على كل حال فى سجل العظيمات !..

الثالثة ، تلك التى لا يعترف بعظمتها سواى ، لأنها مجهولة كالجندى المجهول ، وهى مثله تمثل فئة تجاهد فى الظلام جهاد الأبطال ، فقد أتاحت لى الظروف ، أن أعرفها وأراها عن قرب . رأيتها وهى تهذب أطفالها وتنشئهم على حب المثل العليا . لقد كانت تجمعهم كل ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصا لذيذا مما تطالعه أثناء فراغها ، تختاره من ذلك النوع الممتلئ بالبطولة الخلقية والفضائل الإنسانية . ولم يكن أطفالها وحدهم هم الذين يلذ لهم هذه القصص ، بل زوجها أيضا الذى كان يبكر فى العودة ، حاملا الحلوى ، ليصغى إليها مع الأطفال .. لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك الكلمة .. ولقد كانت المعينة لزوجها فى كل شىء الناصحة له فى كل أمر .. إذا شذ يوما عن نصحها ضل !.. لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول ، وذاقت معه مر الكأس ، وكان نصيبها أكثر من نصيبه .. أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها منه إلا بالأقل .. وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل ، وتحب أن تحذق كل شىء يقع فى محيط حياتها ..

لقد أدارت بيتها خير إدارة ، بل أدارت مزرعة زوجها خيرا منه ، يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل . ولقد شاهدت أولادها يشبون على مبادئ الخلق القويم والرجولة الكاملة التى غرستها فيهم ، ورأت زوجها يختم حياته السعيدة لافظا اسمها مع النفس الأخير ، فعلمت أنها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مثلى ، من هى هذه السيدة ؟.. ذلك لا يهمنا ولا يهمها ، فحسبنا أن نعرف أنها امرأة عرفت واجبها وأدته على الوجه الأكمل !.. وهذا ليس بالشىء القليل على هذه الأرض !.. وهذا وحده

يكفى أن ننحنى لها احتراما ، كما ننحنى أمام تمثال الجندى المجهول ـــ ذلك البطل المستتر ، رمز البطولة المستورة التى لا تقل شأنا عن البطولة المشهورة !..

الرابعة : تلك التى تريد زوجا لا كأغلب الرجال ، بل رجلا ذا رسالة عامة شاقة ، يكافح فى سبيل أدائها معرضا حياته للنجاح والفشل ، وللسلامة والخطر .. رجلا يعيش بمثل عليا ، يرجو أن ينير بها طريق الناس والإنسانية !.. لماذا تريد أن تقرن حياتها بحياة هذا الرجل ؟ لأنها تريد أن تكرس نفسها لهدف عظيم !.. إنها إذن عظيمة النفس .. إنى أتصور ما تستطيع أن تصنع لزوجها مثل هذه المرأة ؟.. إنها ستسهر عليه كما تسهر العين اليقظة على المصباح المضىء ، تحرص على استمرار تألقه وتمسح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من حين إلى حين !..

المـــرأة والحريـــة

من بين الأساطير الهندية أسطورة معروفة فى كل مكـان .. خلاصتهـا أن الإله « تفاشترى » عندما خلق الدنيا ، تناول فى يده العناصر كلهـا ، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والبحـار والأشـجار والحيوان .. وأخيرا الإنسان .. فـى صورة الرجـل الأول .. وجـاء ذلـك الرجل شاملا لكل العناصر مستنفدا لها جميعا .. فلمـا أراد اللّه بعدئـذ أن يخلق المرأة لم ير بدا من أن يستعير لها صفات غيرها من الكائنات ، فـأخذ لها من الشمس ضياءها ، ومن القمـر استدارته ، ومـن النجـوم بريقهـا ، ومن الجبال عنادها ، ومن الرياح تقلبهـا ، ومـن البحـار ميوعتهـا ، ومـن الأغصان مرونتها ومن الندى دموعه ، ومن الـورق خفتـه ، ومـن اليمـام وداعتـه ، ومـن النمـر قسوته ، ومـن الطـاووس خيـلاءه ، ومـن النـار حرارتها ، ومن الجليد برودته .

عجن الإله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينـة ذلـك المخلـوق الـذى يسـمى « المـرأة » وقدمــه إلى الرجــل .. هديـة تؤنسـه وتسـره وتسعده ، فتقبلها الرجل شاكرا .. ولكن لم يمض قليل .. حتى رأى الإله ذلك الرجل يأتى إليه شاكيا :

ــ خذ هديتك !.. إنه سلطان طاغ .. إنه مخلوق لا منطـق لـه .. إنـه يسير فى اتجاهات مختلفة .. وطرق متعارضة .. ما يحبه اليوم يكرهه غدا ، وما رفعه أمس خفضه اليوم ، من أين جئـت بـه ؟.. وكيـف صنعتـه ؟.. كل المتناقضات فيه .. كأنه ثوب مرقع .. فيه من كل لون قطعة !.. ومن

كل مادة بضعة !..

فقال الإله :

ــ وما الذى يزعجك من تناقضه وتقلبه ، ما دمت أنت المالك لزمامه ؟..

فقال الرجل :

ــ من قال إنى المالك للزمام !.. لقد قال لى حقا إنه جاء لخدمتى ولمصلحتى ولهنائى ولرفعتى .. ولكن ما إن استقر فى حياتى حتى غدا هو كالسلطة الطاغية فى الشعب الضعيف !..

فقال الإله :

ــ هذا ليس من حقه !..

فقال الرجل :

ــ هذا هو الذى حدث .. إنه لم ينتر على حياتى رغدا ، ولا نعيما ولا هناء ولا رخاء !.. فهو الأثرة بعينها ، والأنانية قائمة على قدمين !.. تجردنى مما عندى لتمتلئ هى وتنتفخ ، إن هذا المخلوق سلبنى ما معى و لم يعطنى شيئا !..

قال الإله :

ــ وكيف تركته يفعل ؟!..

فقال الرجل :

ــ لست أدرى !.. لقد خدر إرادتى .. واستغل لحظات ضعفى ، واغتر بإخلاصى وحبى ، فجعل يتصرف فى أمرى ومالى تصرف المالك فى عبده !.. وليته أحسن التصرف ! ــ لقد استبد برأيه فلم يحفل بالإصغاء إلىّ ، أو يأبه بالتماس المشورة عندى !..

فقال الإله :

ــ وماذا تريد منى الآن ؟..

فقال الرجل :

ـ حريتى .. أعطنى حريتى ، وخذ هديتك .. الطاغية !..

فقال الإله :

ـ لست أنا الذى سلبتك حريتك ، حتى أردها عليك !.. أنت الذى قدمتها بمطلق اختيارك إلى هذا المخلوق .. الذى تسمية طاغية !.. إنى لم أجد لك أضعف منه لأمنحك إياه .. مخلوق ـ كما اعترفت أنت لا عقل له ولا منطق ـ لا يدرى ما يفعل اليوم ، ولا ما يتجه إليه غدا ، أعطيته لك .. لتحكمه لا ليحكمك .. ولتوجهه لا ليوجهك .. ولتأخذ منه هناءك ، لا ليأخذ منك دماءك !.. ما دخلى أنا إذا كان العكس هو الذى حدث ؟!.. ثق أنى لن أجد لك أضعف منه حاكما لك !..

قال الرجل :

ـ وماذا أصنع الآن ؟..

فقال الإله :

ـ كافح !.. كن رجلا !.. إنى أذكر يوم خلقتك رجلا ، أنى جعلت لك قوة وجلدا !..

قال الرجل :

ـ ألا تخلصنى من هذا المخلوق ؟..

قال الإله :

ـ أخلصك منه .. على شرط .. أن أخلصك فى نفس الوقت من قوتك !..

ـ قوتى ؟!..

ـ نعم !.. قوتك التى آثرتك بها وميزتك .. إنى ما أعطيتك القوة عبثا .. إنما أعطيتك القوة لتكافح بها فى سبيل إرادتك !.. وما دامت لك إرادة ، فلن يسلبك طاغية حريتك !..

واختفى صوت الإله خلف السحب .. وترك الرجل وحيدا ، يفكر ويردد :

ــ إرادتى ؟!..

ثم ثاب إلى رشده أخيرا .. فانطلق إلى بيته لا يلوى على شىء .. وقد دبر فى نفسه أمرا .. فما إن بلغ أعتاب الدار ، حتى رأى ذلك المخلوق الضعيف المتعجرف واقفا وقفة الزهو ، وقد عقد على رأسه الفارغ من العقل ، تاجا من زهر !.. وهو يتأهب للصياح بلهجة الآمر ، فاقترب منه الرجل ، وأمسك بشعره الطويل الفاحم ، وجز منه بسكين خصلات ، فتل منها حبلا أوثق به يديه !..

ثم قال :

ــ الآن أيها السلطان الطاغى ، لن تأخذ منى حريتى !..

المــرأة والبيــت

سألتنى كذلك إحدى المجلات عن رأيى فى الفتاة المصرية الحديثة وفهمها لرسالتها نحو « البيت » ، فأبديت خوفا شديدا من أن يؤدى تيار الحياة العصرية إلى جرف المرأة المصرية بعيدا عن واجبها الأسمى . فالفتاة أليوم أمام هيكلين هائلين ، يؤثران فى عقليتها الناشئة ومجرى تفكيرها الحديث : دور السينما ، ودور الجامعات ، وإنى لأخشى أن أقول إن الفتاة فى مصر اليوم إذا فقدت الاتزان ، واندفعت بكل روحها إلى أحد هذين الهيكلين ، ـ فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتين :

الأولى : تلك التى تخرجت بنجاح من دور السينما والملاهى ، وحذقت تقليد ممثلات « هوليود » ورأت « كلوديت كلولبير » تصفع زوجها فى الرواية على خده الأسيل ، فيمسح مكان الصفح بالمنديل ، وراحت تراقص هذا وذاك ، وتجلس على مقعد « البار » العالى وتتمدد عارية على أديم الرمال ، ولا تعرف من شئون الدنيا والآخرة غير الكلام فى الجاذبية وقلة الجاذبية التى عند الرجال ، ولا تدرك أن عليها لزوجها واجبات ، فهى ليست مسئولة عن بيت ولا مطبخ ولا أولاد ، لأن هذا من عمل الخدم والمربيات .. أما هى فوظيفتها فى الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات ، وفى الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفى العصر التعلق برقبته ليخرج بها إلى النزهة ، أو يدعها تذهب إلى « زوزو » و « شوشو » و « موشو » للعب « البريدج » و « الكونكان » !..

أظن مثل هذه المرأة توافقنى على أن الرجل المحترم المسئول هو آخر من يفكر فى قبول مثل هذه المرأة شريكا محترما يسير إلى جانبه فى طريق حياة جدية قد تكون عظيمة الأثر فى تاريخ بلاده !..

أما النوع الثانى من المرأة فهو نوع تخرّج بنجاح من المدارس والجامعات ، فحذق تقليد الرجل فى جهله بشئون البيت ، ومعرفته بآراء « أفلاطون » و « أبى العلاء » ، نوع من حائزات البكالوريات أو الدبلومات اللاتى قد يصلحن للتدريس أو التوظف ، ولكنهن لا يصلحن زوجات !.. نساء يعرفن « أفلاطون » ولا يعرفن كيف تقلى بيضة ، فإذا مرض الطباخ أو خرج تغذى الزوج المحترم بزبدة أفكار « أفلاطون » !..

أما خريجات المدارس الإنجليزية — ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية أو الإنجليزية ومبادئ البيانو — فإنهن عرائس جوفاء صنعت فى حوانيت « المير دى ديو » أو « الدام دى سيمون » ، لتوضع مع جهاز العرس فى بيت زوج مسكين ، كتب عليه أن ينكب بحمل هذه الدمية المتحركة الناطقة « بمون شير » و « ماشيرى » من حيث أراد معينا يعينه على حمل متاعب الحياة !..

وكلتا المرأتين لم تفهم مما تعلمته فى هذه المدارس المختلفة غير شىء واحد : حقها المطلق فى السيطرة على الرجل وإخضاعه وعدم طاعته ، وجعله خادما لمطالبها ، نازلا على إرادتها ، واعتبار أى حق له قبلها تأخرا ، يقابل منها بالاحتجاج والازدراء .. هذا حادث فى مصر بالفعل الآن !..

أما فى أوروبا ، حيث عرفت المرأة كيف تصل إلى الاتزان المطلوب ، فهاكم ما تقوله زوجة فاضلة فى إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتها أخيرا بالمصادفة :

« منذ الأيام الأولى لزواجى ، رسمت لنفسى خط سير محدد : هو أن

أسمع وأعمل كل ما يريده زوجي ، ولم أنحرف أبدا عن هذا المبدأ . ولقد وجدت نفسي بذلك على خير حال ، إذ بفضل ذلك جعل زوجي يسمع ويعمل كل ما أريد !.. هنا سر سعادتي ، وهي كما ترى قائمة على هذا المبدأ البسيط : فلتفعل الزوجة ما يعجب زوجها ، ويفعل هو ما يعجبها !.. » .

هل يستطيع أحد أن يعد لى كثيرا من الزوجات عندنا اليوم يسرن على مثل هذا المبدأ البسيط ؟!..

إنى أعتقد أن الزوجة الصالحة هى تلك التى تستطيع مشاركة زوجها فى سيره الطويل الشاق فى طريق الحياة وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير ، وأن تخفف عنه قسطا وافرا من أعباء الحياة اليومية !..

لكم أثرت فى نفسى صورة أخيرة للمستر « تشرشل » ، وهو يمشى إلى جوار زوجته ، متنزهين فى إحدى الطرق !.. كل ما فى تلك الصورة يدل على أن هذين الزوجين قد قطعا معا على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من هناء وشقاء ..

كذلك أثرت فى نفسى كلمة إهداء ، صدر بها أحد كبار رجال السياسة فى فرنسا كتابا له ختم به حياة كلها كفاح :

« إلى زوجتى التى تشاركنى أيامى البيض وأيامى السود » !..

فإلى أن تكثر فى مصر والشرق مثل هذه الشريكة ، لن نجد بكثرة رجالا عظاما ، يحتملون السير فى طريق الجهاد والمجد حتى النهاية !..

سليقـة المـــرأة

أذكر أن فتاة مثقفة سألتنى ذات يوم عن رأيى فـى اشتغالها بالصحافـة .. وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة ؟.. فقلـت لهـا : ثقـى أن المرأة مخبرة صحفية بالفطرة .. سواء التحقت بجريدة أو ببيتهـا .. لقـد كان « آدم » فى الجنة هادئا وادعا ساكنا لا يفكر فى شىء ، ولا يصـل إلى عالمه أمر .. فمـن الـذى جـاءه بالخـبر الأول فـى تـاريخ الأخبـار ؟.. وأعنـى بـه اقـتراح « إبليس » أكـل الفاكهـة المحرمــة ؟.. أليســت هــى « حواء » التى نقلت إلى « آدم » هذا الخبر الهام ؟!..

مـن الـذى كــان يســمع مــن « الحيــة » الكــلام ، ويجـرى معهــا « الأحــاديث » ، ويستقى منهـا الأخبــار ، ويفضــى بهــا إلى آدم ؟ .. أليست هى حواء ؟.. إنى أعتقد أن هذه الحادثة هـى أول عمـل صحفـى منـذ بـدء الخليقـة !.. وبهـذا تكـون « حـواء » هـى أول صحفيـة مخـبرة ظهرت فى الكون ، قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق !..

إن الصحافة فى دم المرأة .. وهى عندما لا تجد خبرا تنقله أو شـخصا تستجوبه ، تعمـد إلى زوجهـا فتفضـى إليـه بكـل مـا سمعـت فـى يومهـا وما رأت فى نهارها .. أما إذا كان الزوج هو القـادم عليهـا مـن الخـارج فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال : أين كنت ؟.. ومع من كنت ؟ وفيـم كنتم تتحدثون ؟.. والويل لـه إذا تهـرب مـن الإجابـة متذرعـا بـالتعب ، أو راجيا تأجيل الحديث ، أو مؤكـدا أنـه لم يقـابل أحـدا ذا بـال ، فإنهـا عندئذ تعامله كما لو كان وزيرا خطيرا يخفـى عنهـا عـامدا اسرار أزمـة

دولية !.. فهي تضيق عليه الخناق .. وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة ، فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس عنده ما يستحق الكلام ، صاحت به : أهذا معقول ؟ كل هذا الوقت فى الخارج وليس عندك ما تقول ؟.. وتظل به تستحثه حتى يضطر المسكين إلى أن يلفق لها خبرا لم يقع .. ولكنها بسليقتها تدرك أن ما قال ليس له نصيب من الصحة ، فتبتسم وتسكت متظاهرة بالإصغاء ، إلى أن يتورط فى سلسلة من الأكاذيب والمتناقضات ، فتمسك به متلبسا بالأكذوبة ، فيعترف ، وهنا تقول له :

ــ لن أصدقك بعد اليوم ؟.. كل أخبارك كاذبة ؟..

ــ ومن قال لك أن تتخذينى مصدرا للأخبار ؟..

ــ لماذا تخترع ؟.. لماذا لا تقول الحقيقة ؟..

ــ لأنه لا توجد حقيقة .. لا يوجد شيء على الإطلاق .. وأنت مصممة على أن تنتزعى منى خبرا بأى طريقة !..

ــ أريد خبرا صحيحا لا مخترعا !

ــ لا يوجد .. قلت لك لا يوجد .. ليست عندى اليوم خبر صحيح . لم يبق إلا أن أخترع !.. وإلا فلأسكت سكوتا مطبقا .. وإياك أن تسأليني شيئا أبدا !..

ــ إذن اخترع .. هذا على كل حال خير من لا شيء !..

نعم .. إن الصحافة الإخبارية ميراث المرأة عن جدتها « حواء » .. فلتهبط ميدانها إذا شاءت ، ولتنقل من الأخبار ما أرادت ، ولتستق من المصادر ما وجدت ! ولن يعوزها اليوم أيضا فى الدنيا « إبليس » ولن تنقصها « حية » ، فإن محيط المجتمع من قومى وعالمى يعج ويضج بالأبالسة والشياطين والحيات والثعابين ، بأحاديثها ومغرياتها ومقترحاتها ..

ولعل ملايين السنين قد علمت المرأة الآن الحكمة .. فلن ننقل « الخبر » الذى يخرج آدمها الجديد من « الجنة » !..

الفهرس

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع صفحة

رقم الإيداع : ١٩٣٢ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٦ ـ ٠٣٦٣ ـ ١١ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٦٥٠ قرشا

To: www.al-mostafa.com